موجز

علوم القرآن

الدكتور
داود العطار

الفصل الأول

تعريف علوم القرآن

نؤثر أن نعرف (علوم القرآن) باعتبارين .

- الأول : باعتبارها مركبة من كلمتين .
- الثاني : باعتبار المعنى الإفرادي لها .

المبحث الأول
علوم القرآن بالمعنى التركيبي

إن لكل من كلمة (علم) و(قرآن) دلالة لغوية، ومعنى اصطلاحياً، يجدر الإلمام بهما بإيجاز.

المطلب الأول
العلم لغة واصطلاحاً

أولاً ـ العلم لغة :

أ ـ يُقال علم علماً ـ بفتحة وكسرة ـ أي حصلت له حقيقة العلم.

ب ـ يُقال علم الشيء : أي عرفه، وتيقّنه، وأدركه.

جـ ـ يُقال أعلمه الأمر، وبالأمر : أي أطلعه عليه.

فيكون العلم : الحقيقة، المعرفة، اليقين، الإدراك. ولهذا قيل إن العلم : هو الإدراك الجازم المطابق للواقع، أو هو إدراك الشيء بحقيقته[1].

والعلم مطلقاً هو : مطلق الإدراك الذي يشمل التصور والتصديق.

---

(١) الراغب، المفردات ص ٣٤٣.

وقال الحكماء : العلم هو حصول صورة الشيء في العقل[1] .

ثانياً ـ العلم اصطلاحاً :

تطلق كلمة العلم ويصطلح بها على أحد المعاني التالية :

أ ـ الموضوع ذاته : فيقال علم الفلك ، وعلم الطب ، وعلم النفس ، وعلم التفسير ، وعلم الكلام وهكذا . ويراد به موضوعات هذه العلوم ، ومسائلها .

ب ـ معرفة الموضوع : فيقال : لفلان علم بموضوع النجوم ، أو علم بالأنساب ، أو علم بالأنواء الجوية ، أي لديه إلمام ومعرفة بمسائل وقواعد هذه العلوم .

جـ ـ القدرة على معرفة الموضوع : وهي المعرفة بالقوّة ، أي القدرة على معرفة مسائل وقواعد الموضوع ، وإن لم تكن حاصلة بالفعل .

وأوفق معاني هذه الإطلاقات لموضوعنا قيد البحث هو الإطلاق الأول .

المطلب الثاني
القرآن لغة واصطلاحاً

أولاً ـ القرآن لغة[2] :

أ ـ المقروء المكتوب :

يُقال قرأ الرسالة قراءة وقرآناً ؛ أي نطق بالمكتوب فيها ، ومنه قوله

---

(١) الجرجاني ، التعريفات ، ص ١٣٥ .

(٢) انظر تاج العروس ، مادة (قرأ) . الراغب : المفردات ، ص ٤٠٢ . الطبرسي : مجمع البيان ، ج ١/ ١٤ . السيوطي : الإتقان ، ج ١/ ٥٠ . شهاب الدين القسطلاني : لطائف الإشارات ، ج ١/ ١٨ .

تعالى : ﴿فإذا قرأناه فاتبع قرآنه﴾ [سورة القيامة ؛ الآية : ١٨] ويكون الأقرأ : الأفصح قراءة . كما قد يكون بمعنى إلقاء النظر على الرسالة ومطالعتها صمتاً .

ب ـ الجمع :

(ويسمى قرآناً لأنه يجمع السور فيضمها) . وقال ابن الأثير : إن الأصل في لفظة القرآن هو (الجمع ، وكل شيء جمعته فقد قرأته ، وسمي قرآناً لأنه جمع القصص ، والأمر والنهي ، والوعد والوعيد ، والآيات والسور ، بعضها إلى البعض) . وقال الراغب : (والقراءة ضم الحروف والكلمات بعضها إلى بعض في الترتيل . وليس يُقال ذلك لكل جمع ، لا يُقال قرأت القوم إذا جمعتهم) .

جـ ـ اسم لكتاب الله تعالى :

فقد روي عن الشافعي أنه قال : (القرآن اسم وليس بمهموز لكتاب الله مثل التوراة والإنجيل) . وقال أبو بكر بن مجاهد المقرىء : كان أبو عمرو بن العلاء لا يهمز القرآن . وقال الراغب : والقرآن في الأصل مصدر ، نحو كفران ورجحان .

ولعل ما ذهب إليه ابن الأثير وغيره من اللغويين ، من أن الأصل في القرآن : الجمع ، هو أقرب المعاني انسجاماً ومناسبة مع واقع القرآن الكريم ، فيما ضم من الأحكام العامة وجمع[1] من القواعد الكلية ، والأسس الرئيسة للشريعة الإسلامية الغراء .

وإنما جعل الله تعالى القرآن قانوناً أساسياً وكلياً ، باعتباره دستور الدين الكامل ، والنعمة التامة ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم

(١) قال بعض الحكماء تسمية هذا الكتاب قرآناً من بين كتب الله لكونه جامعاً لثمرة كتبه ، بل لجمعه ثمرة جميع العلوم ، كما أشار تعالى إليه بقوله : ﴿. . . وتفصيل كل شيء﴾ وقوله : ﴿تبياناً لكل شيء﴾ . الراغب : المفردات ، ص ٤٠٢ .

نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ [سورة المائدة ، الآية : ٣] . فلا يوحي الله تعالىٰ بعد القرآن كتاباً ، فكان من مقتضى لطفه سبحانه ، أن يكون كلياً إجمالياً ليسير مع تطورات الحياة بحكم أحداثها ووقائعها ، ويشمل مناحيها ، ويستجيب لحاجاتها ومتطلباتها ، في كل الميادين ، رغم اختلاف الظروف والبيئة ، محافظاً على مقاصد الشرع الحنيف : ﴿ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدىً ورحمة وبشرى للمسلمين﴾ [سورة النحل ، الآية : ٨٩] .

وإن أقرب هذه المعاني لموضوعنا قيد البحث ، هو كون القرآن اسماً لكتاب الله تعالىٰ ، من حيث هو ، لا من سائر الحيثيات .

ثانياً ـ القرآن اصطلاحاً :

القرآن الكريم ، أسمى وأشهر من أن يعرَّف . ولكن جرت سنة المعنيين به أن يعرِّفوه تعريفاً جامعاً مانعاً ، ومع ذلك جاءت تعاريفهم شتى صياغة ، متقاربة معنى . وقالوا :

أ ـ (القرآن هو الكلام القائم بذات الله تعالىٰ ، وما نقل إلينا بين دفتي المصحف ، نقلاً متواتراً)[١] .

ب ـ (إن القرآن : الذي في المصاحف بأيدي المسلمين شرقاً وغرباً فما بين ذلك ، من أول أم القرآن إلى آخر المعوذتين ، كلام الله عزّ وجلّ ، ووحيه ، أنزله على قلب نبيِّه محمد ﷺ ، ومن كفر بحرف منه فهو كافر)[٢] .

جـ ـ (القرآن هو الكتاب المنزل على رسول الله عليه الصَّلاة والسَّلام ، المكتوب في المصاحف ، المنقول إلينا نقلاً متواتراً بلا

---

(١) الغزالي : المستصفى ، ج ٦٥/١

(٢) معجم فقه ابن حزم : مجلد ٨٣٣/٢ .

شبهة)[1] .

د ـ (القرآن هو كتاب الله المنزل على رسوله محمد ﷺ والمدون بين دفتي المصحف ، المبدوء بسورة الفاتحة ، المختوم بسورة الناس)[2] .

هـ ـ (اللفظ العربي المنزل على محمد ﷺ ، المنقول إلينا بالتواتر)[3] .

ويمكن القول إن القرآن الكريم هو :

وحي الله المنزل على النبي محمد ﷺ لفظاً ومعنى وأسلوباً ، المكتوب في المصاحف ، المنقول عنه بالتواتر .

ومن خواص هذا التعريف أنه :

١ ـ وحـي اللّـه :

الوحي يشمل كل ما أوحى به الله تعالى إلى رسله وأنبيائه .

٢ ـ المنزل على النبي محمد ﷺ :

قيد خرج به جميع الرسالات والأديان السابقة ، كالتوراة والإنجيل والزبور ، لأنها نزلت على سائر الأنبياء .

٣ ـ لفظاً ومعنى وأسلوباً :

قيد خرج به ما ثبت من الحديث القدسي ، وهو ما نزل على النبي ﷺ ولم يثبت نظمه في القرآن الكريم ، كما خرج بهذا القيد : التفسير ، وترجمة القرآن إلى سائر اللغات ، لاختلاف الالفاظ والأسلوب وإن اتفقت المعاني . وبهذا نستغني عن إيراد قيد (العربية)

---

(١) أصول البزدوي ، ج ١/ ٢١ ـ ٢٣ .

(٢) عبد القادر عودة : التشريع الجنائي ج١/ ١٦٥ .

(٣) محمود شلتوت : الإسلام عقيدة وشريعة ، ص ٣٩٩ .

الذي ذكره الشيخ شلتوت في تعريفه السابق .

٤ ـ المكتوب في المصاحف :

قيد خرج به ما أوحى الله تعالى به إلى النبي ﷺ من الأحكام ، وأداها بأسلوبه الخاص ، قولاً ، مثل (صلاة الفجر ركعتان) و (صلوا كما رأيتموني أصلي) ، و (خذوا عني مناسككم)[١] .

٥ ـ المنقول بالتواتر :

اي : أن القرآن نقله قوم لا يتوهم اجتماعهم وتواطؤهم على الكذب لكثرتهم ، وتباين أماكنهم ، عن قوم مثلهم ، وهكذا ، إلى أن يصل النقل إلى رسول الله ﷺ .

وبهذا القيد خرج المنقول بالشهرة ، والقراءات الشاذة ، مثل ما روي عن عبد الله بن مسعود أنه قرأ قوله تعالىٰ في كفارة اليمين ﴿ . . . **فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام . .** ﴾ [سورة المائدة ؛ الآية : ٨٩] . بزيادة (متتابعات) . فهذه القراءة محمولة على أنها تفسير للأيام الثلاثة بكونها متتابعات[٢] .

المبحث الثاني
علوم القرآن بالمعنى الإفرادي

ونقصد بها الأبحاث العلمية في القرآن الكريم . فلقد أقبل العلماء على دراسة كتاب الله المجيد بشوق وشغف وتقديس ، وكتبوا عنه أبحاثاً علمية قيمة ، غزيرة المادة ، عميمة الفائدة ، عميقة الغور ، أسموها (علوم القرآن) وإنما كانت هذه العلوم كثيرة العدد[٣] لأن

---

(١) أنظر : محمود أبو رية : قصة الحديث النبوي ، ص ٥ ـ ٦ .

(٢) الغزالي : المستصفى ، ج ٥٦/١ .

(٣) ومنهم من قال إنها خمسون علماً ، وأربعمائة علم ، وسبعة آلاف علم ، وسبعون ألف ،

المعنيين بدراسة القرآن الكريم ، قصدوا تحقيق أهداف كثيرة ، ولأنهم نظروا إلى القرآن من حيثيات مختلفة ، فمنهم من فصل هذه العلوم تفصيلاً مطولاً ، ومنهم من وحد وجمع بعضها مع بعض ، تحت عنوان واحد .

وفيما يلي تعريف مقتضب بأهم هذه العلوم ، نتبعه بنمحة تاريخية موجزة عن تأسيسها وعلمائها .

المطلب الأول
أمثلة على علوم القرآن

١ ـ علم التفسير :

التفسير في الأصل هو الكشف والإظهار ، وفي الاصطلاح بيان معنى الآية وشأنها وظروفها بلفظ يدل عليه دلالة ظاهرة .

فالنظر في القرآن الكريم من حيث كونه كلاماً له دلالة ومعنى ، ولله تعالى فيه هدف وقصد ، ومن أجل بيان هذه الدلالة ، وشرح المعنى ، وإيضاح القصد ، والإفصاح عن الهدف ، نشأ (علم التفسير) الذي تكفل بتلك الغايات .

ونشأت للتفسير أساليب ومذاهب[1] ، ودونت للمفسرين شرائط وآداب وصار المفسرون طبقات .

ولأهمية الدور الذي يمارسه (علم التفسير) صار هذا العلم أساساً لكافة العلوم وأهمها ، وما من علم إلاّ ويعول عليه .

علم (٧٧٤٥٠) على عدد كلم القرآن مضروبة في أربعة : السيوطي : الاتقان ج ١/١٢٨ .

(١) أنظر في أساليب التفسير وطرقه ولوازمه : الطبرسي : المجمع ، ج ١/١ وما بعدها الميزان للطبطبائي ج ١/٢ ، ج ٣/٧٧ ، الخوئي : البيان ، ص ٤٢١ .

٢ ـ علم آيات الأحكام :

للأحكام الشرعية مصادر ، منها القرآن الكريم ، والسنة ، والإجماع ، والعقل . وقد اختلف العلماء في بعض المصادر التشريعية . ولكنهم مجمعون على القرآن الكريم باعتباره أول تلك المصادر .

فالنظر إلى القرآن الكريم ، من حيث كونه الأصل الأول للتشريع الإسلامي أو المصدر الأساس لمعرفة أحكام الشريعة الغراء ، بما يفيده النص القرآني من أمر أو نهي ، على سبيل الإيجاب أو الترجيح أو الإباحة ، وبمقارنته بسائر المصادر التشريعية ، أصبحت آيات الأحكام موضوعاً لعلم[1] هو علم آيات الأحكام . (قيل إنها خمسمائة آية)[2] .

٣ ـ علم الإعجاز :

والنظر في القرآن الكريم ، باعتباره حجة على جميع البشر ، لأنه من الله تعالى ، ودليل كونه من الله تعالى : إعجازه ، ـ كما سنبحثه إن شاء الله ـ صارت وجوه إعجاز القرآن أدلة كونه من الله تعالى . والقرآن الكريم بهذا الاعتبار ، صار دليل صدق نبوة الرسول الأمين ﷺ . وقد تكفل علم الإعجاز بيان وجوه الإعجاز في القرآن ، وشروط المعجزة ، ووجه الحاجة إليها ، ونحو ذلك .

٤ ـ علم المكي والمدني :

والنظر إلى القرآن الكريم ، من حيث نزوله على الرسول

---

(١) وأول من صنف في هذا العلم من الشيعة محمد بن السائب الكلبي (ت ١٤٦ هـ) ومن الشافعية الإمام محمد بن إدريس (ت ٢٠٤ هـ) ومن الحنفية أبو بكر الرازي (ت ٣٧٠ هـ) ومن المالكية القاضي أبو إسحاق إسماعيل بن إسحاق (ت ٢٨٢ هـ) ومن الحنابلة القاضي أبو يعلى الكبير (ت ٤٥٨ هـ) .

(٢) الجزائري : قلائد الدرر ، ج ١/ب .

الكريم ، مرّة باعتبار (زمن) نزول آياته ، قبل الهجرة من مكة إلى المدينة أو بعدها ، ومرة باعتبار (مكان) ما نزل منها في مكة ، سواء قبل الهجرة أو بعدها ، وما نزل في المدينة ، أو سائر الأماكن والأحوال ، كالإسراء والمعراج ، ومرة ثالثة باعتبار (الأشخاص) المخاطبين بآياته ؛ وكونهم مكيين أو مدنيين . فقد تولى علم المكي والمدني بيان كل ذلك ، وترتبت عليه فوائد تشريعية وفكرية ، سنعرض لها فيما بعد ، إن شاء الله تعالى .

٥ ـ علم أسباب النزول :

وهو العلم الذي يتكفل بالكشف عن الأحداث التاريخية ، والوقائع التي كانت من دواعي نزول النص القرآني .

فالنظر في القرآن الكريم ، ومعرفة ما نزل منه ابتداءً دون ما سابق أثر ، وما نزل منه لسبب سابق ، وما نزل مفصحاً عن السبب ، أو مجيباً عنه ، أو مبيناً لحكمه ، وهو تؤخذ الآية بعموم معناها ؟ أن بخصوص سبب نزولها ؟ ومدى أخذ واقع الآية وما رافقها من ظروف وأحداث وأشخاص بنظر الاعتبار في مدلولها ، كل ذلك وما إليه تكفل ببيانه علم أسباب النزول .

ولهذا العلم دور مؤثر ، في الإفصاح عن كنه الآية ، وبيان مرادها ، وما تضمنته من أبعاد وأغراض .

٦ ـ علم الناسخ والمنسوخ :

النسخ : قد يأتي بمعنى الإزالة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ ... **فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته** ... ﴾ [سورة الحج ، الآية : ٥٢] . وقد يأتي بمعنى نقل صورة الكتابة من موضع إلى آخر ، ومنه قولك : نسخت الكتاب ، إذا نقلت لفظه وخطه كما هو .

والنظر في القرآن : باعتبار أن آية من آياته مبينة لانتهاء أمد حكم

تضمنته آية أخرى ، وانقضاء أجله ورفعه ، ودعوى من لا يرى وقوع النسخ ، وتفسيره للآيات المقول بنسخها ، وحججه على ما يقول ، وأقسام النسخ بالنسبة للقائلين به ، وهل الأصل في الآيات الأحكام إلاّ عند قيام دليل شرعي لرفع حكم شرعي ثابت ، هذه المباحث وما إليها تكفل بها علم الناسخ والمنسوخ .

وأهمية هذا العلم كبيرة في معرفة استمرار ثبوت حكم الآية أو ارتفاعه ، قال الإمام علي عليه السلام لقاض : أتعرف الناسخ والمنسوخ ؟ قال : لا . قال : هلكت وأهلكت[1] ولهذا فإن لعلم الناسخ والمنسوخ أهمية خاصة بالنسبة للفقه والقضاء والتفسير ومعرفة الأحكام . . .

ومن الجدير بالإشارة أن النسخ في القرآن ليس من قبيل التناقض في القول أو الاختلاف فيه ، وإنما هو ناشىء من الاختلاف في المصداق الذي ينطبق عليه الحكم حيناً تحقيقاً لمصلحة ، ولا ينطبق حيناً آخر لعدم المصلحة ، بحسب التقدير الشرعي[2] .

٧ ـ علم المحكم والمتشابه :

يمكن القول إن القرآن كله محكم ، إذا أُريد بالإحكام : الإتقان وعدم تطرق النقص والاختلاف إليه : **﴿الر كتاب أُحكمت آياته . . .﴾** [سورة هود ؛ الآية : ١] .

كما يمكن القول إن القرآن كله متشابه ، إذا أُريد بالتشابه تشابه الآيات في الحق والصدق ، والبلاغة النظمية ووجوه الإعجاز . **﴿الله نزّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني . . .﴾** [سورة الزمر ؛ الآية : ٢٣] .

غير أن قوله تعالى : **﴿هو الذين أنزل عليك الكتاب منه آيات**

---

(١) الزركشي : البرهان ج ٢/٢٩ ، السيوطي : الإتقان ج ٢/٢٠ .

(٢) انظر : التشريع الجنائي الإسلامي ، لعبد القادر عودة تعليق السيد الصدر ج ١/٣١١ وما بعدها .

محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات . . . ﴾ [سورة آل عمران ، الآية : ٧] قد قسم القرآن الكريم إلى آيات محكمات ، وأخر متشابهات . وقد ذهب العلماء إلى ما يزيد على عشرة أقوال في تشخيص هذا التشابه والإحكام ، وبيان مصاديقهما من الآيات .

وعلم المحكم والمتشابه : هو الذي يتولى التفريق بين محكم الآيات ومتشابهها ، وبيان الفرق بين التشابه والتأويل ، وما إلى ذلك .

٨ ـ علم الإعراب وعلم البلاغة :

إن النحاة يبنون من القرآن قواعد إعرابهم ، فهو مرجعهم ، وحكمهم في معرفة خطأ القول من صوابه . والبلاغيون يستهدونه لمعرفة محاسن الصياغة وموازين البلاغة . . .

فالنظر في القرآن الكريم باعتباره نصاً عربياً في درجة الكمال ، اتساقاً مع القواعد النحوية ، ودرجة الإعجاز في النظم والصياغة البلاغية ، هو ما يشكل علم الإعراب وعلم البلاغة .

٩ ـ علم الرسم القرآني :

والنظر في القرآن الكريم باعتباره لفظاً عربياً مكتوباً بخط وبشكل خاص وهل هذا الرسم توقيفي ورد النص عليه أم لا ، وهل يجوز مخالفة رسمه حسب الاصطلاحات الشائعة في كل زمن من حيث الخط والإملاء ، وما إلى ذلك . . . فالعلم الذي يبحث ويوضح هذه البحوث هو علم الرسم القرآني .

١٠ ـ علم القراءات :

والنظر إلى القرآن باعتباره كلاماً يتلفظ به بشكل خاص ، والبحث في أنواع القراءات المروية والمعتبرة ، واختلافاتها ، ومستويات الاختلاف في القراءات والمناهج في قبولها أو رفضها والآراء في

القراءات السبع وعلاقتها بالأحرف السبعة[1] التي أنزل عليها القرآن ، والقراءة المثلى ، وما إلى ذلك هو ما يسمى بعلم القراءات .

وهكذا نجد أن علوم القرآن تعددت باختلاف الاعتبارات وحيثيات النظر في القرآن الكريم .

ويعتبر القرآن الكريم ـ بعد كونه كتاب هداية وتنظيم المجتمع الإنساني ـ بحق مفجر العلوم من قرب أو بعد ، فإن الله تعالى هو القائل : ﴿ . . . ما فرّطنا في الكتاب من شيء . . . ﴾ [سورة الأنعام :

---

(1) يروى حديث عن رسول الله ﷺ (إن القرآن أُنزل على سبعة أحرف) وقد أوّل لبعض الأحرف السبعة تأويلات شتى أدت إلى مشاكل وخلافات عقيدية ولغوية عمقت الحزازات ثم تدخلت الأهواء والعصبيات فحدث لهذا الحديث من الآثار ما لم يحدث لغيره

فابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) يرى أنها سبعة أوجه من اللغات متفرقة في القرآن ، والطبري (ت ٣١٠ هـ) يرى أنها سبع لغات ، أو سبعة ألسن من بين ألسن العرب التي يعجز عن إحصائها (انظر تفسير الطبري ج ٤٦/١ ، شاهين : تاريخ القرآن ، ص ٣٣ ـ ٣٥) .

وخلاصة القول أن ما يروى من الأحرف السبعة التي أُنزل عليها القرآن لا علاقة لها بالقراءات السبع وإن توهم قوم ذلك . وإن القراءات السبع أو العشر ، منها ما هو اجتهاد من المقرىء ، ومنها ما هو منقول بخبر الواحد وهذا هو رأي جماعة المحققين من أهل السنة ، بل المشهور عند جمهور المسلمين (أنظر : الخوئي : البيان ، ص ١٣٧) .

والحق أن القرآن ما نزل إلاّ على حرف واحد ، وأن تسجيله كان على حرف واحد متواتر ، والحقيقة ـ المرة ـ أن ما وقع من اختلاف فمرده الرواة حسب قواعد البحث العلمي ومناهج النقد الإسلامية . ولا يمكن إرجاع هذه الاختلافات إلى رسول الله ﷺ . ﴿ . . قل ما يكون لي أن أُبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلاّ ما يوحى إلي . . ﴾[سورة يونس ؛ الآية : ١٥] .

إن الدكتور شاهين يعتبر الاختلافات (رخصة مؤقتة) تاريخ القرآن ، ص ٨٥ . ويقول معاذ الله أن يصدر عبث من الرواة لأنهم أصحاب القرآن : ص ٣٢ ونحن نقول ومعاذ الله أن يصدر الاختلاف من رسول الله ﷺ لأنه مبلغ القرآن : ﴿وما ينطق عن الهوى إن هو إلاّ وحي يوحى﴾[سورة النجم ؛ الآيتان : ٣ ، ٤] .

الآية : ٣٨] . ﴿ . . . ونزّلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء . . . ﴾ [سورة النحل ؛ الآية : ٨٩] . وعن رسول الله ﷺ أنه قال : (ستكون فتن) قيل وما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال : (كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم) .

والجدير بالذكر : أن تعدد علوم القرآن لا يعني اختصاص كل علم بعدد من آياته . فقد تكون الآية الواحدة موضوع علمين أو أكثر ، بحسب الحيثيات أو الاعتبارات . فقوله تعالى : ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا . . . ﴾ [سورة المائدة ؛ الآية : ٩٣] . قد ينظر إليها في علم أسباب النزول ، وعلم آيات الأحكام ، وعلم الناسخ والمنسوخ ، والمحكم والمتشابه ، والمكي والمدني ، وهكذا ، وبحسب تعدد الاعتبارات تتعدد علوم القرآن .

المطلب الثاني
لمحة تاريخية عن علوم القرآن

لقد أدركت الطلائع المؤمنة من أصحاب رسول الله ﷺ أهمية العلم ، ووعت أن الشخصية الإسلامية عمادها الأساس هو التوحيد ، وأنّ طريق التوحيد هو العلم ، فانبرت للعلم تنهله ، وترتاد رياضه ، وطلبت العلم ليهديها إلى الحقائق الكونية والعلوية ، ولتبلغ المراتب السامية في مدارج الرقي الحضاري، وتنافست في مصداق قوله تعالى : ﴿ . . . قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، إنما يتذكر أولوا الألباب﴾ [سورة الزمر ؛ الآية : ٩] . وتسابقت كسباً للدرجات العليا عند الله تعالى ، ونيلاً للمرفعة والمنزلة السامية لديه ﴿ . . . يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات . . . ﴾ [سورة المجادلة ؛ الآية : ١١] .

وفهم المسلمون الأوائل البون الشاسع بين الجهل والعلم في اعتبارات القرآن ، حين ثقفوا قوله تعالى : ﴿كذلك يطبع الله على قلوب

الذين لا يعلمون﴾ [سورة الروم : الآية : ٥٩] . في الوقت الذي اعتدّ الله تعالى بشهادة أهل العلم على وحدانيته : ﴿شهد الله أنه لا إله إلاّ هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط . . .﴾ [سورة آل عمران : الآية : ١٨] .

ولقد كان رسول الله ﷺ النمير العذب ، والسلسل الرقراق للعلوم الإسلامية فأحاط به الصحابة الأجلاء ، يقبسون منه سناء العلم ، ويستضيؤون بهداه . . غير أن هذه العلوم القرآنية لم تدوّن عند تدوين القرآن في العهد الرسالي وذلك :

١ ـ لوجود الرسول ﷺ في المسلمين ، يوضح لهم ما أشكل عليهم فهمه ، ويبصرهم بحقائق التفسير ، ويوجههم نحو المقاصد القرآنية ، فهو ﴿. . . يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة . . .﴾ [سورة آل عمران : الآية : ١٦٤] .

٢ ـ قدرتهم على الفهم المباشر والاستيعاب الصحيح ، لفصاحتهم وبلاغتهم العربية الأصيلة ، ولأن القرآن الكريم ﴿نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين﴾ [سورة الشعراء : الآيات : ١٩٣ ـ ١٩٥] .

٣ ـ لعسر الكتابة ، وندرة أدواتها ، وقلّة الكتاب .

٤ ـ لنهي الرسول ﷺ كتابة شيء عنه غير القرآن . فعن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله «لا تكتبوا عني شيئاً غير القرآن ، فمن كتب عني غير القرآن فليمحه» . (ولا يتعدى ما كتب عن رسول الله في عصره عشر صفحات إلاّ أن ذلك لا يعدّ تدويناً)(١) .

لذلك كان التلقين طريقاً والمشافهة أسلوباً للتعلم وللتعليم . وبعد أن اختار الله تعالى الصادق الأمين ﷺ إلى جواره ، تبارى المسلمون

---

(١) الشيخ محمود أبو رية : قصة الحديث المحمدي ص ١٨ وما بعدها .

الغياري على الدين في تدوين العلوم وتصنيفها ، حسب ما توفرت لديهم من الوسائل والأدوات ، ولعل أهم الأسباب التي دفعتهم إلى التدوين :

١ ـ الرغبة في أن يكونوا مصاديق تتحقق فيهم إرادة الله الأزلية في حفظ القرآن وتخليده ، بالبحث فيما احتواه من علوم ، وما تضمنه من معارف . . .

٢ ـ خدمة الأمة الإسلامية جيلاً بعد جيل ، بإشاعة العلم بينها ، ونقله لها ـ دون خطأ أو اشتباه ـ بتدوينه . لا سيما بعد أن اختلط العرب بغيرهم من الأعاجم .

٣ ـ تزكية ما لديهم من العلم بنشره بين المسلمين ، فإن في نشره زكاة له . وفيما يلي عرض موجز لأبرز من صنّف ودوّن في العلوم القرآنية :

التدوين بعد وفاة رسول الله (ص) :

لقد كان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام الرجل الأول ، والمحرز لقصب السبق ، في مضمار تدوين القرآن وتفسيره وبيان علومه .

ففي (الفهرست) لابن النديم[١] عن عبد خير أن علياً حين رأى من الناس ما رأى عند وفاة النبي صلى الله عليه وسلم أقسم أنه لا يضع على ظهره رداءه حتى يجمع القرآن فهو أول مصحف جمع فيه القرآن . وأخرج ابن أبي داود في كتاب المصاحف عن ابن سيرين قريباً منه ، وكذلك ابن الضريس في فضائله ، وابن أشتة في المصاحف من وجه آخر ، وفيه أنه كتب فيه الناسخ والمنسوخ .

والجدير بالذكر أن جمع علي عليه السلام القرآن لا يعني أنه لم يكن مدوّناً ، بل كان مدوّناً في الرقاع والعسب ونحوها . وقام علي عليه السلام

(١) السيوطي : الاتقان ، ج ١/٥٧ ـ ٥٨ .

بتدوينه مصفحاً وذلك بترتيب (الجذاذات) المدوّن عليها وتوحيدها . كما سيأتي بحثها في جمع القرآن إن شاء الله .

والمشهور أن الإمام علي عليه السلام أمر أبا الأسود الدؤلي (ت ٦٩ هـ) بوضع بعض قواعد اللغة حفاظاً على سلامتها ، فكان علي عليه السلام أول من وضع الأساس لعلم إعراب القرآن .

وأما في مضمار التفسير فقد جاء (أما الخلفاء فأكثر من روي عنه منهم علي بن أبي طالب ، والرواية عن الثلاثة نزرة جداً)[١] وعن نصير بن سليمان الأحمسي عن أبيه عن علي بن أبي طالب أنه قال والله ما نزلت آية إلاّ وقد علمت فيما نزلت وأين نزلت ، إن ربي وهب لي قلباً وعقلاً ولساناً سؤلاً[٢] .

وعن الأصبغ بن نباتة أنه عليه السلام قال في خطبة له : (. . . سلوني قبل أن تفقدوني فوالذي فلق الحبّة ، وبرأ النسمة ، لو سألتموني عن أية آية لأخبرتكم بوقت نزولها ، وفيم نزلت ، وأنبأتكم بناسخها من منسوخها ، وخاصها من عامها ، ومحكمها من متشابهها ، ومكيها من مدنيها . . .)[٣] .

وعن ابن الطفيل قال : شهدت علياً يخطب وهو يقول (سلوني ، فوالله ما من آية إلاّ وأنا أعلم : أبليل نزلت أم بنهار ؟ أم في سهل أم في جبل)[٤] .

وبرع الإمام علي عليه السلام في سائر العلوم القرآنية وصنفها ، فلقد (أملى ستين نوعاً من أنواع علوم القرآن وذكر لكل نوع مثالاً بخصه ، وهو في كتاب نرويه عنه من عدة طرق ، موجود بأيدينا إلى اليوم ، وقد

---

(١) السيوطي : الإتقان ، ج ٢/١٨٧ .
(٢) المصدر نفسه .
(٣) المفيد : الإرشاد ، ص ٢٣ .
(٤) السيوطي : الإتقان ، ج ٢/١٨٧ .

بتدوينه مصفحاً وذلك بترتيب (الجذاذات) المدوّن عليها وتوحيدها . كما سيأتي بحثها في جمع القرآن إن شاء الله .

والمشهور أن الإمام علي عليه السلام أمر أبا الأسود الدؤلي (ت ٦٩ هـ) بوضع بعض قواعد اللغة حفاظاً على سلامتها ، فكان علي عليه السلام أول من وضع الأساس لعلم إعراب القرآن .

وأما في مضمار التفسير فقد جاء (أما الخلفاء فأكثر من روي عنه منهم علي بن أبي طالب ، والرواية عن الثلاثة نزرة جداً)[1] وعن نصير بن سليمان الأحمسي عن أبيه عن علي بن أبي طالب أنه قال والله ما نزلت آية إلاّ وقد علمت فيما نزلت وأين نزلت ، إن ربي وهب لي قلباً وعقلاً ولساناً سؤلاً[2] .

وعن الأصبغ بن نباتة أنه عليه السلام قال في خطبة له : (. . . سلوني قبل أن تفقدوني فوالذي فلق الحبّة ، وبرأ النسمة ، لو سألتموني عن أية آية لأخبرتكم بوقت نزولها ، وفيم نزلت ، وأنبأتكم بناسخها من منسوخها ، وخاصها من عامها ، ومحكمها من متشابهها ، ومكيها من مدنيها . . .)[3] .

وعن ابن الطفيل قال : شهدت علياً يخطب وهو يقول (سلوني ، فوالله ما من آية إلاّ وأنا أعلم : أبليل نزلت أم بنهار ؟ أم في سهل أم في جبل)[4] .

وبرع الإمام علي عليه السلام في سائر العلوم القرآنية وصنفها ، فلقد (أملى ستين نوعاً من أنواع علوم القرآن وذكر لكل نوع مثالاً يخصه ، وهو في كتاب نرويه عنه من عدة طرق ، موجود بأيدينا إلى اليوم ، وقد

---

(١) السيوطي : الإتقان ، ج ١٨٧/٢ .
(٢) المصدر نفسه .
(٣) المفيد : الإرشاد ، ص ٢٣ .
(٤) السيوطي : الإتقان ، ج ١٨٧/٢ .

أخرجه بتمامه العلامة المجلسي(١) في الجزء التاسع عشر من بحار الأنوار)(٢) .

وليس عجيباً أن ينال علي ﷺ هذه المرتبة ، وأن يدخر هذه الكنوز العلمية ، وأن يبلغ هذا الشأو ، بل كان لزاماً على رسول الله ﷺ وهو خاتم النبيين ، أن يصطفي من صحابته أولهم إسلاماً وأقدمهم إيماناً وأصدقهم يقيناً وأقربهم إليه وأشفقهم عليه ، ليكون مستودعاً لعلومه ، حيث أخذت منه ﷺ الدعوة الإسلامية ، ونشرها ، ومقارعة حملات الشرك والوثنية ، وأهل الكتاب وتأسيس الدولة ، وإيجاد المجتمع الأمثل ، كل وقته . فكان علي ﷺ فعلاً حافظاً ومستودعاً لعلومه ﷺ : قال الإمام ﷺ (كنت أدخل على رسول الله كل يوم دخلة فيخليني فيها أدور معه حيث ما دار ، وقد علم أصحاب رسول الله أنه لم يفعل ذلك بأحد غيري . . . وكنت إذا سألته أجابني ، وإذا سكت وفنيت مسائلي ابتدأني ، فما نزلت على رسول الله آية من القرآن إلاّ أقرانيها وأملاها عليَّ ، فكتبتها بخطي ، وعلمني تأويلها وتفسيرها ، وناسخها ومنسوخها ، ومحكمها ومتشابهها ، وخاصها وعامها ، ودعا الله أن يعلمني فهمها وحفظها)(٣) .

وعن عبد الله بن مسعود : قال استدعى رسول الله ﷺ علياً ﷺ ، فخلا به ، فلما خرج إلينا سألناه : ما الذي عهد به إليك فقال : علمني ألف باب من العلم فتح لي من كل باب ألف باب(٤) .

ولقد أبان القرآن الكريم عن منزلة علي ﷺ ومقامه في آية

---

(١) هو المحدث الكبير محمد باقر بن محمد تقي الأصفهاني المجلسي (١٠٣٧ هـ - ١١١٠ هـ) .

(٢) السيد حسن الصدر : تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام ، ص ٣١٨ .

(٣) الصدوق : الخصال ، ص ١٢٣ .

(٤) الشيخ المفيد : الإرشاد ، ص ٢٣ .

المباهلة[1] وغيرها ، وأكد ذلك رسول الله ﷺ في حديث الثقلين[2] وحديث المنزلة[3] وغيرهما .

ومن الصحابة الأوائل في التفسير والتأويل : عبد الله بن عباس بن عبد المطلب (ت ٦٨ هـ) . فهو أول من أملى في تفسير القرآن . قال أبو الخير في طبقات المفسرين عند ذكره ابن عباس : فهو ترجمان القرآن ، وحبر الأمة ، ورئيس المفسرين[4] .

قال الزركشي : وصدور المفسرين من الصحابة : علي ثم ابن عباس ، إلّا أن ابن عباس كان قد أخذ عن علي[5] .

وقال أيضاً : كان لعلي فيه ـ التفسير ـ اليد السابقة قبل ابن عباس وهو القائل : لو أردت أن أملي وقْرَ بعير عن الفاتحة لفعلت . وقال ابن عطية (ت ٥٤٦ هـ) : فأما صدر المفسرين والمؤيّد فيهم فعلي بن أبي طالب ويتلوه ابن عباس رضي الله عنهما[6] .

وقد ورد أن رسول الله ﷺ دعا لابن عباس بقوله : (اللّهُمّ فقهه في الدين وعلمه التأويل) .

ومن المفسرين جابر بن عبد الله الأنصاري (ت ٧٤ هـ) الذي عدّه أبو الخير في طبقات المفسرين من الطبقة الأولى ، ومنهم عبد الله بن مسعود ، وأبو موسى الأشعري ، ومنهم الصحابي الجليل أُبي بن

(١) قوله تعالى : ﴿ . . . فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم . . . ﴾ [سورة آل عمران ؛ الآية : ٦١] . فالأبناء : الحسنان ، والنساء : فاطمة ، والأنفس : علي .

(٢) قوله ﷺ : (خلفت فيكم الثقلين : كتاب الله وعترتي أهل بيتي . . .) .

(٣) قوله ﷺ : (أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلّا أنه لا نبي بعدي) .

(٤) تأسيس الشيعة ، ص ٣٢٢ .

(٥) البرهان : ج ٢ / ١٥٧ .

(٦) المصدر نفسه ، ج ١ / ٨ .

كعب[1] وهو أول من صنّف في فضائل القرآن، وهو سيّد القُرّاء، وعدّه أبو الخير في الطبقة الأولى من المفسرين، وهو ممن جمع القرآن على عهد النبي ﷺ [2].

ومنهم سعيد بن جبير[3] التابعي، وهو من أعلم التابعين في التفسير[4] وقال سفيان الثوري[5] خذوا التفسير عن أربعة: سعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة والضحاك . . . وقال قتادة: . . . كان سعيد بن جبير أعلمهم بالتفسير[6].

القرن الثاني للهجرة[7]:

وممن اهتموا بعلوم القرآن، وعنوا بها: أبان بن تغلب (ت ١٤١هـ) فهو أول من صنف في القراءة، ودوّن علمها، وأوّل من صنّف في معاني القرآن، وأوّل من صنّف في غريب القرآن.

ومنهم طاووس بن كيسان (ت ١٠٦ هـ)، وهو من أصحاب الإمام علي بن الحسين عليه السلام عدّه ابن تيمية من أعلم الناس بالتفسير، ومنهم المعز بن السائب الكلبي، من أصحاب الإمام محمد الباقر عليه السلام وهو أوّل من صنّف في أحكام القرآن (ت ١٤٦ هـ) وهو صاحب التفسير الكبير، ومنهم شعبة بن الحجاج، وسفيان بن عيينة، ووكيع بن الجراح، والسدي (ت ١٢٧ هـ) وأبو حمزة الثمالي صاحب زين

---

(١) اختلف في وفاته: قيل سنة ١٩ هـ، وقيل ٣٢ هـ.

(٢) الطبرسي: مجمع البيان، ج ١ / ٧.

(٣) قتله الحجاج سنة ٦٤ هـ وقد كبه حين أراد قتله (ثم قال له من أنت؟ قال أنا سعيد بن جبير. فقال له أنت شقي بن كسير). العلوي اليمني: الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ج ٢ / ٣٨١.

(٤) تأسيس الشيعة، ص ٣٢٢.

(٥) ولد عام (٩٥ هـ) وتوفي عام (١٦١ هـ) بالبصرة.

(٦) السيوطي: الإتقان، ج ٢ / ١٨٩.

(٧) تأسيس الشيعة ص ٣٠٣، ٣٠٥، ٣١٩، ٣٢٠، ٣٢١، ٣٢٥.

العابدين عليه السلام ذكر تفسيره ابن النديم .

القرن الثالث للهجرة :

ومن مشاهير المهتمين بعلوم القرآن في هذا القرن : الفرّاء يحيى بن زياد (ت ٢٠٧ هـ) فقد صنف في معاني القرآن ، ومنهم علي بن إبراهيم القمي وله كتاب تفسير القرآن ، وعليه المعوّل إلى اليوم ، لأنه تفسير بالمأثور عن أهل البيت عليهم السلام ، عاصر الإمام الحسن العسكري عليه السلام وهو من أعيان القرن الثالث .

ومنهم محمد بن جنيد ، وهو من الفقهاء الأعاظم ، ألّف في الفقه المقارن ، وهو أول من صنّف في أمثال القرآن ، ذكر ابن النديم في الفهرست ما لفظه (كتاب الأمثال لابن جنيد) . وله مصنفات كثيرة . وهو من معاصري والد الشيخ الصدوق .

ومنهم العياشي محمد بن مسعود ، فله ما يقرب من مائتي مصنّف ، منها كتاب التفسير المعروف بـ (تفسير العياشي) . والحسن بن علي بن فضال ، له كتاب (الناسخ والمنسوخ) ، وكان من خواص الإمام الرضا عليه السلام وتوفي سنة ٢٢٤ هـ . ومحمد بن العباس بن علي ، المعروف بابن الحجام ، له في كل علوم ألقرآن كتب مفردة ، وله كتاب (ما نزل في أهل البيت من القرآن) ، وهو ألف ورقة .

ومنهم علي بن المديني (ت ٢٣٤ هـ) ، له (أسباب النزول) . وأبو عبيد القاسم بن سلام له (الناسخ والمنسوخ) و (القراءات) و (فضائل القرآن) ، ومحمد بن أيوب الضريس (ت ٢٩٤ هـ) ، صنف في المكي والمدني .

القرن الرابع للهجرة[1] :

في هذا القرن ، نشط العلماء في تكريس جهودهم في تدوين

---

(١) أنظر تأسيس الشيعة ، ص ٣٢١ وما بعدها

علوم القرآن بصورة واسعة ، فمنهم أبو علي الكوفي (ت ٣٤٦ هـ) له كتاب (فضائل القرآن) ، ومنهم ابن جرير الطبري (ت ٣١٠ هـ) ، وتفسيره مشهور باسمه . ومنهم ابن عقدة أبو العباس : وهو وحيد دهره في حفظ الحديث (ت ٣٣٣ هـ) له كتاب في تفسير القرآن من طريق أهل البيت ، ومنهم أبو بكر بن القاسم الأنباري (ت ٣٢٨ هـ) ، له مصنف في (عجائب علوم القرآن) . وأبو الحسن الأشعري له كتاب (المختزن في علوم القرآن) ، ومحمد الأدفوي (ت ٣٨٨ هـ) وكتابه (الاستغناء في علوم القرآن) ، في عشرين مجلداً . وعبد الله بن أبي داود سليمان بن الأشعث (ت ٣١٦ هـ) له كتاب (المصاحف) والسيد الشريف الرضي (ت ٤٠٦ هـ) وله كتاب (تلخيص البيان في مجازات القرآن) .

القرن الخامس للهجرة[1] :

وفي هذا القرن ازداد ازدهار المؤلفات وكثرت المصنفات فظهر منها (البرهان في علوم القرآن) ، و(البيان في علوم القرآن) للشيخ المفيد محمد بن النعمان (ت ٤٠٩ هـ) وقيل (ت ٤١٣ هـ) . وكتاب (التبيان في تفسير القرآن) للشيخ أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي[2] (٣٨٥ هـ - ٤٦٠ هـ) ، وكتاب (التيسير في القراءات السبع) وكتاب (المحكم في النقط) لأبي عمرو الداني (ت ٤٤٤ هـ) . وكتاب (المفردات في غريب القرآن) للراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢ هـ) .

القرن السادس للهجرة :

ومن المصنفين في هذا القرن : الشيخ رشيد الدين محمد بن علي بن شهراشوب (ت ٥٨٨ هـ)، له كتاب (أسباب النزول) ، وكتاب

---

(١) انظر الزنجاني : تاريخ القرآن ص ١٦ ، تأسيس الشيعة ص ٣٣٩ .

(٢) هو شيخ الإمامية . قدم العراق، وتتلمذ لدى الشيخ المفيد ، وتوفي ودفن في النجف الأشرف .

(متشابه القرآن) ، ومنهم الشيخ أبو الفتوح الرازي ، له كتاب (روض الجنان في تفسير القرآن) في عشرين مجلداً .

ومنهم أمين الدين الطبرسي (ت ٥٤٨ هـ) وقيل (٥٥٢ هـ - ٥٦١ هـ) صاحب (مجمع البيان في تفسير القرآن) . ومنهم ابن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) صاحب (فنون الأفنان في عجائب علوم القرآن) .

القرن السابع للهجرة :

ومن علماء هذا القرن علم الدين السخاوي (ت ٦٤٣ هـ) له كتاب (جمال القُراء وكمال الأقراء) . والعز بن عبد السلام (ت ٦٦٠ هـ) صنف في مجاز القرآن . وأبو شامة (ت ٦٦٥ هـ) له (المرشد الوجيز فيما يتعلق بالقرآن العزيز) .

القرن الثامن للهجرة :

وفي هذا القرن ألّف بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (٧٤٥ هـ - ٧٩٤ هـ) كتاب (البرهان في علوم القرآن) .

القرن التاسع للهجرة :

ازداد في هذا القرن التأليف وتنوّع : فصنف جلال الدين عبد الرحمٰن السيوطي (ت ٩١١ هـ) كتاب (الإتقان في علوم القرآن) وكتاب (التحبير في علوم التفسير) و(معترك الأقران في تفسير القرآن) . وصنف جلال الدين البلقيني كتابه (مواقع العلوم في مواقع النجوم) .

ثم استمر العلماء في إغناء المكتبة الإسلامية بصنوف المؤلفات والأبحاث المتعلقة بالقرآن الكريم أمثال (قلائد الدرر) للشيخ أحمد الجزائري (ت ١١٥١ هـ) ونحوها ، وفي القرن الأخير ظهرت بدائع المؤلفات ونفائس المصنفات التي كشفت عما في القرآن الكريم من ذخائر وكنوز المعرفة والعلم . منها (الميزان في تفسير القرآن) للعلامة الكبير السيد محمد حسين الطباطبائي وهو من كتب التفسير القيمة ، وقد

ناقش فيها آراء كثير من المفسرين القدامى والمحدثين ، وجمع بين طريقتي الرأي والمأثور ، وضم أبحاثاً علمية واجتماعية وقرآنية وروائية ، تدل على سعة الاطلاع ، وعمق التفكير واستيعاب المادة .

ومما ظهر كتاب (التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن) للشيخ طاهر الجزائري . وكتاب (محاسن التأويل) للشيخ جمال الدين القاسمي ، وكتاب (مناهل العرفان في علوم القرآن) للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني ، و (منهج الفرقان في علوم القرآن) للشيخ محمد علي سلامة . و (التصوير الفني في القرآن) و (في ظلال القرآن) للأستاذ السيد قطب ، وكتاب (الظاهرة القرآنية) للأستاذ مالك بن نبي . وقد كشف فيه عن جانب الوحي . و (تفسير القرآن الحكيم) للسيد محمد رشيد رضا . وكتاب (إعجاز القرآن) للأستاذ مصطفى صادق الرافعي . و (نظرات في القرآن) للأستاذ محمد الغزالي . وكتاب (علوم الطبيعة في القرآن) للأستاذ يوسف مروّة ، بحث فيه العلوم الحديثة كالذرة وغزو الفضاء والنسبة ، والنظام الكوني . . وكتاب (روائع الإعجاز) تأليف الدكتور محمد جمال الدين فندي ـ لجنة الخبراء ـ وفيه بيان ما في القرآن من علوم تتعلق بالمريخ والزهرة والماء والقمر والمذنبات والمجرات والأرض والإنسان والصعود إلى الكواكب . . . وظهر للإمام السيد أبي القاسم الخوئي كتاب (البيان في تفسير القرآن) وفيه مقدمات ومباحث هامة جداً ، مع تفسير الفاتحة .

ولا يزال البحث والتأليف مستمراً في أصقاع العالم الإسلامي ، والعلماء عاكفون على دراسة ما في القرآن الكريم من أصناف المعارف والعلوم ، وهو يمد البشرية بأنوار الهداية ، والرشاد ، ويدلهم على الطريق المستقيم ، والحياة الحرة السعيدة الكريمة .

الفصل الثاني

القرآن الكريم

- أسماء القرآن ومناسباتها اللفظية والمعنوية .
- إعجاز القرآن .
- هداية القرآن .
- أثر القرآن في تحرير العقول .
- دعوة القرآن إلى التفكير .
- الأمة الإسلامية : عقيدتها ، معاملاتها ، أخلاقها .

المبحث الأول
أسماء القرآن ومناسباتها

دلالة الأسماء والمصطلحات :

إن (المصطلحات) التي يستعملها الباحثون ، لها مداليل ومفاهيم يجب البحث عنها ضمن الفكر الذي يستند إليه الباحث ، ويفسر بموجبه الظواهر والأحداث ليخلص إلى النتائج المطلوبة .

وليس من الصواب قبول (اصطلاح) ما ، بغضّ النظر عن القيم الفكرية التي يستند عليها . فلفظ (الحرية) مثلاً ، أو (العدالة) أو (الحق) أو غيرها يختلف مفهومه في الفكر الإسلامي ، عما هو عليه في الأفكار المغايرة .

ومما يؤيد ما ذهبنا إليه ، ما جاء ، أن الإسلام (لم يتبنَّ العدالة الاجتماعية بمفهومها التجريدي العام ، ولم ينادِ بها ، بشكل مفتوح لكل تفسير ، ولا أوكله إلى المجتمعات الإنسانية التي تختلف في نظرتها إلى العدالة الاجتماعية ، باختلاف أفكارها الحضارية ومفاهيمها عن الحياة)[1] .

---

(١) محمد باقر الصدر : اقتصادنا ج ٢ / ٢٨١ .

وعلى هذا الأساس ، فليس من الصواب : ترحيل الاصطلاحات من فكر إلى فكر ، يختلف عنه في قاعدته العقيدية ، وفلسفته التشريعية . فمن الجهل أن تبحث مفهوم (التقوى) مثلاً في الفكر الرأسمالي ، أو فكرة (سوق المنافسة الحرة) في الفكر الاشتراكي ، أو (الديمقراطية) في الفكر الإسلامي .

والغريب أن البعض !! يصطلح على (الإسلام) اصطلاحات فكرية غريبة عن أسسه الفكرية . ولعل الهدف منها :

(أ) إما ترويج الإسلام ـ إذا افترضنا حسن النيّة ـ وهذه طريقة باطلة ، لأن وصف الإسلام أو تسميته بما هو غريب عنه ، طمسٌ لمعالمه الفكرية ، وتشويه لحقائقه وأبعاده التشريعية . إذ الإسلام بحقيقته المجردة ، ودونما وصف إضافي ، قدير على كسب أفئدة الشعوب ، وتنظيم مجتمع الإنسانية ، إذا ما تجلت تشريعاته واتضحت مفاهيمه الكاملة الشاملة ، دونما تعصب أو هوى ، ولا أدل على ذلك من التجربة العملية التي مرّ بها طيلة الحكم النبوي الشريف .

(ب) وإما مطاردة الفكر الإسلامي ـ إذا افترضنا سوء النيّة ـ بإشاعة الأفكار والمصطلحات الأجنبية ، وصبغها بصبغة إسلامية ، لإغفال الأمة عن فكرها الأصيل ، وجرها إلى ما لا تمت إليه بصلة ، بأسلوب خبيث جذاب ، من غير ضجة ، ولا إثارة انتباه ، فتندفع الأمة إلى الإيمان به ، باعتبار أن هذا الاصطلاح الأجنبي (رائج) أولاً ، وأنه لا ينافي (لب الإسلام !!) ثانياً ، وكأن الإسلام (جوز الهند) ، فيه لب وفيه قشور يجدر طرحها !!! .

على أن الاعتبار في استعمال الاصطلاحات إنما هو بالأغراض التي وقع الاصطلاح لأجلها ، وإذا علمنا ذلك اتضح لنا السر في اختيار الله تعالىٰ لكتابه الكريم اسماً مخالفاً لما سمّى العرب كلامهم جملة وتفصيلاً .

فلو سمي القرآن (ديواناً) ، والسورة (قصيدة) ، والآية (بيتاً) ، ونهايات الآيات (قوافي) ، لتحقق إقرار التعبير الجاهلي ، ولسار القرآن الكريم في خط الاستعمالات والأعراف الشائعة قبله ، ولكنه بالرغم من نزوله قرآناً عربياً ، وبلسان عربي مبين ، تجده ينهج في اصطلاحاته ، نهجاً يتفق مع ما جاء به من فكر وقيم ومفاهيم وأعراف . ويطلق تسمياته حسب أغراض يريدها ، تتجاوب مع تصوراته ، وتتفق مع مداليله ، وقيمه الخاصة .

وعليه (فلا يجوز تسمية الفواصل قوافي إجماعاً ، لأن الله تعالى لما سلب عنه اسم الشعر ، وجب سلب القافية عنه أيضاً ، لأنها منه وخاصة به في الاصطلاح ، وكما يمتنع استعمال القافية فيه ، يمتنع استعمال الفاصلة في الشعر ، لأنها صفة لكتاب الله لا تتعداه)[1] .

ولعل السبب أو الباعث على هذا التغيير هو :

(أ) ابتناء التسميات والمصطلحات الجاهلية على الفكر والمفاهيم الجاهلية ، وقصورها ـ بالتالي ـ عن احتمال المعاني الإسلامية الجديدة .

(ب) إرادة طبع الثقافة الإسلامية ـ ومن ثم ـ الأمة الإسلامية التي تبشر بها ، بطابع خاص متميز ، عن طريق هذه المصطلحات ، والتسميات الجديدة .

قال تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا . . . .﴾ [سورة البقرة ، الآية : ١٠٤] ، وما تحويل القبلة ، وتعيين أعياد خاصة للمسلمين وتسمية الرسول من لم يتبع الإسلام (جاهلي) إلا مؤيدات لما ذهبنا إليه ، من الحرص على إيجاد أمة مستقلة عن سائر الأمم ، الغارقة في الخرافات والجهالة ، مستقلة عنها : في الفكر والسلوك ، والعواطف والمشاعر ، وهكذا كانت أمتنا كما أرادها الله

(١) السيوطي : الإتقان ج ٢/ ٩٧ .

وصنعها رسوله الكريم : خير أمة أخرجت للناس . . .

أسماء وأوصاف القرآن ومناسباتها :

تناول العلماء أسماء القرآن بالبحث ، فقال (أبو المعالي عُزيزي بن عبد الملك المعروف بشيذلة ـ بضم عين عُزيزي ـ في كتاب البرهان : اعلم أن الله سمّى القرآن بخمسة وخمسين اسماً)(١) . وهذا وهم منه ، إذ إنه خلط بين الأسماء والأوصاف ، وأكثر ما ذكر من أسماء للقرآن إن هي إلاّ أوصاف ، مناسبة لكتاب الله العزيز .

والمناسبة في اللغة : المقارنة ، وفلان يناسب فلاناً أي يقرب منه . وسمي النسيب نسيباً لقربه واتصاله . (ومنه المناسبة في العلة ـ في باب القياس ـ الوصف المقارب للحكم . لأنه إذا حصلت مقاربته له ظن عند وجود ذلك الوصف وجود الحكم . ولهذا قيل : المناسبة أمر معقول إذا عرض على العقول تلقته بالقبول)(٢) عند من يقول بالقياس .

ولكل اسم من أسماء القرآن أو وصف من أوصافه ، مناسبة مضمونية : فوصفه بـ (الحكيم) مثلاً لإحكام صياغته ، واحتوائه على الحِكَم والعِبر . إذ الحكيم صفة تناسب مضمون القرآن . وكذا وصفه بـ (النور) لأن الرؤية لا تتم ـ مع وجود البصر ـ إلاّ بالنور ، والعقل مع قدرته على الإدراك فإنه لا يدرك كثيراً من الحقائق ولا يهتدي إليها إلاّ بالقرآن ، وتوجيهاته النيرة . قال تعالىٰ : ﴿. . . **قد جاءكم من الله نور ، وكتاب مبين ، يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام**﴾ [سورة المائدة ؛ الآيتان : ١٥ ـ ١٦] .

وفيما يلي ذكر بعض أسماء وأوصاف القرآن الكريم ، مع بيان

---

(١) السيوطي : الإتقان ج ١/ ٥٠ .
(٢) الزركشي : البرهان ج ١/ ٣٥ .

المناسبات التي تربط بينه وبين المعاني الاشتقاقية لهذه الأسماء والأوصاف :

١ ـ القرآن :

قال تعالىٰ : ﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدّعاً من خشية الله . . .﴾ [سورة الحشر ؛ الآية : ٢١] .

فإن قلنا إن (القرآن) مصدر ، أو وصف مشتق فمعناه (الجمع) ، من قولهم قرأت الشيء أي جمعته[١] ، بدلالة قوله تعالىٰ : ﴿فإذا قرأناه فاتبع قرآنه﴾ [سورة القيامة ؛ الآية : ١٨] . ومناسبته أن القرآن الكريم جمع أحكام الأمم الغابرة ، وأخبارها ، وجمع بين رقة الشعر وجزالة النثر البليغ ، وجمع بين أصول العقيدة ومبادىء الأخلاق والأحكام العملية ، وجمع ـ للمتمسك به ـ خير الدنيا والآخرة ، وجمع بين متطلبات الإنسان الجسدية والروحية وهكذا . . . . وإلى هذا المعنى ذهب جماعة كبيرة من اللغويين[٢] وأنه الأصل في اللغة العربية .

وإن قلنا إن القرآن مصدر قرأ قراءة وقرآناً : أي نطق بالمكتوب ، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿إنّ علينا جمعه وقرآنه﴾ [سورة القيامة ؛ الآية : ١٧] . فإن مناسبته حفظ الكتاب الإلٰهي في الصدور ، لأن في القراءة استذكاراً واستظهاراً للشيء ، كما أنه مما يتعبد الله تعالىٰ بتلاوته .

أما إذا قلنا إن القرآن : لم يؤخذ من قرأت ، إذ لا يُقال لكل جمع قرآن ، ولا لجمع كل كلام قرآن ، فيكون اسماً قد خص بالكتاب المنزّل على محمد ﷺ فصار له كالعَلَم ، كالتوراة والإنجيل[٣] .

---

(١) القسطلاني : لطائف الإشارات ج ١/١٨ .
(٢) انظر : لسان العرب مادة/قرأ .
(٣) انظر : المفردات ص ٤٠٢ .

٢ ـ الكتاب :

لما كان (الكتاب) بالتبادر (هو الصحيفة أو الصحائف التي تضبط فيها طائفة من المعاني ، عن طريق التخطيط بقلم أو طابع أو غيرهما)(١) ، كما أن الكتابة ليست إلا جمعاً للحروف ، ورسماً للألفاظ ، فتسمية كلام الله تعالى بـ (الكتاب) إشارة إلى جمعه في السطور .

وقد جرى كلامه تعالى في إطلاق الكتاب على أمور منها :

أ ـ الكتب المنزلة على الأنبياء المشتملة على شرائع الدين ، ككتاب نوح عليه السلام في قوله تعالى : ﴿ . . . وأنزل معهم الكتاب بالحق . . . ﴾ [سورة البقرة ؛ الآية : ٢١٣] ، وكتاب إبراهيم وموسى عليهما السلام ﴿صحف إبراهيم وموسى﴾ [سورة الأعلى ؛ الآية : ١٩] . وكتاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿الم ذلك الكتاب لا ريب فيه . . . ﴾ [سورة البقرة ؛ الآيتان : ١ ـ ٢] . وكتاب يحيى عليه السلام ﴿يا يحيى خذ الكتاب بقوّة . . . ﴾ [سورة مريم ؛ الآية : ١٢] .

ب ـ الكتب المخصصة لضبط الحسنات والسيئات ، فمنها ما هو مخصص لكل إنسان ﴿وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾ [سورة الإسراء ؛ الآيتان : ١٣ ـ ١٤] . ومنها ما هو عام لكل أمة من الأمم ﴿وترى كلَّ أمة جاثية كلُّ أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزوْن ما كنتم تعملون﴾ [سورة الجاثية ؛ الآية : ٢٨] .

جـ ـ الكتب التي تضبط أحداث الوجود ونظامه ، وهذه منها الثابت : ﴿ . . . وما يعزب عن ربك من مثقال ذرّة في الأرض ولا في

---

(١) الميزان : ج ٧/ ٢٦٥ .

السماء ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلاّ في كتاب مبين﴾ [سورة يونس ؛ الآية : ٦١] . ومنها الكتب التي يتطرق إليها التغيير كما يشاء الله تعالىٰ ﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب﴾ [سورة الرعد ؛ الآية : ٣٩] .

٣ ـ الفرقان :

﴿تبارك الذي نزّل الفرقان . . .﴾ [سورة الفرقان ؛ الآية : ١] .

ومادة الفرقان تفيد معنى التفرقة ، ومناسبتها : الإشعار بالدور الذي أدّاه كتاب الله تعالىٰ في التفريق بين الهدى والضلال ، والحق والباطل ، وطريق الجنّة وطريق النار ، وسبيل الحلال وسبيل الحرام ، ومنهج العبودية في عبادة المخلوق ومنهج التحرير في عبادة رب الأرباب . . . الخ . (وقيل سمي بذلك لأنه يؤدي إلى النجاة والمخرج نظير قوله تعالىٰ : ﴿. . . يجعل لكم فرقاناً . . .﴾)[1] [سورة الأنفال ؛ الآية : ٢٩] .

٤ ـ الكلام :

وهو مشتق من الكلم بمعنى التأثير : (لأنه يؤثر في ذهن السامع فائدة لم تكن عنده)[2] قال تعالىٰ : ﴿وإن أحد من المشركين استجارك فأجرْ حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون﴾ [سورة التوبة ؛ الآية : ٦] .

(وعن الحسين بن خالد قال : قلت للرضا علي بن موسى عليه السلام : يا ابن رسول الله أخبرني عن القرآن ، أخالق أم مخلوق ؟ فقال : ليس بخالق ولا مخلوق ، ولكنه كلام الله عزّ وجلّ)[3] .

---

(١) الطبرسي : مجمع البيان ج ١/١٤ .
(٢) السيوطي : الإتقان ، ج ١/٥٠ .
(٣) الصدوق : كتاب التوحيد ، ص ١٥٧ .

ويمكن أن تكون هذه التسمية مناسبة لما في القرآن الكريم من أحكام ، أو أخبار ، نظير قوله تعالىٰ : ﴿**وتمّت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدّل لكلماته وهو السميع العليم**﴾ [سورة الأنعام ؛ الآية : ١١٥] ، أي لأحكامه .

٥ ـ الهدىٰ :

ومناسبته : كون القرآن الكريم هادياً إلى الحق والرشاد ، وهو من باب إطلاق المصدر وإرادة الفاعل . نظير قوله تعالىٰ : ﴿**شهر رمضان الذي أُنزل فيه القرآن هدىً للناس وبيّنات من الهدى والفرقان . . .**﴾ [سورة البقرة ؛ الآية : ١٨٥] . بمعنى : هادياً للناس . . .

٦ ـ ذكر :

وهو الشرف ، ومناسبته : أن الرسول ﷺ نال أقصى مراتب الشرف بتبليغه القرآن الكريم ، وكذلك صارت أمة محمد ﷺ خير الأمم وأشرفها ، لأنها حملت للناس نور القرآن وهدايته . ﴿**وإنه لذكرٌ لك ولقومك وسوف تُسألون**﴾ [سورة الزخرف ؛ الآية : ٤٤] .

كما أنه ذكرٌ من الله تعالىٰ لعباده ، بالفرائض والأحكام ، ولما ضمّ من المواعظ والعِبَر ، وذكر الأُمم الغابرة .

ولقد وردت أوصاف أُخرى للقرآن الكريم ، منها : (شفاء) إشارة إلى أثره في معالجة أمراض القلوب ، كالكفر والحقد ، والغلّ والحسد ، بل هو شفاء للجسم أيضاً لما فيه من قواعد الصحة الوقائية العامة ، نظير قوله تعالىٰ : ﴿**. . . وكلوا واشربوا ولا تُسرفوا إنه لا يحب المسرفين**﴾ [سورة الأعراف ؛ الآية : ٣١] . ومنها (القصص) كما في قوله تعالىٰ : ﴿**إن هذا لهو القصص الحق . . .**﴾ [سورة آل عمران ؛ الآية : ٦٢] ، لما فيه من قصص الأُمم الغابرة . ومنها (الحكيم) لأنه أُحكمت آياته بعجيب النظم ، وبديع المعاني ، كما أنها أُحكمت فلا يتطرق إليها التبديل أو التحريف . ومنها (الحكمة) إشارة إلى أن القرآن

وضع كل شيء في محله المناسب ، فيما فصّل من حلال وحرام ، وما شرع من أمر ونهي . كما أن نزول القرآن تمَّ على القانون المعتبر ، من وضع كل شيء في موضعه اللائق . ومنها (الحبل) لأنه سبب للوصول إلى الهدى ، والجنّة ، ورضوان الله تعالىٰ . ومنها (الصراط المستقيم) لأنه طريق قويم إلى الله ، لا عوج فيه ولا دوران . ومنها (العزيز ، الموعظة ، المجيد ، بلاغ ، بصائر ، بيان ، المثاني ، التنزيل ، الوحي ، الرحمة ، النذير ، المهيمن . . . الخ .) وغيرها من الأوصاف المناسبة للقرآن لم نتعرض إلى شرحها خشية الإطالة .

المبحث الثاني
إعجاز القرآن

بحث العلماء إعجاز القرآن ، وصنّفوا مختلف المصنفات ، ولا يزالون على الأعتاب . . . على الرغم مما قدموه من مؤلفات جليلة القدر .

فقد بات من الواضح ، أن القرآن : دالّة البلغاء ، والفصحاء ، وضالّة الحكماء ، وحجة الفقهاء ، ومصدر الحكام ، ومورد علماء الاجتماع والاقتصاد والسياسة ، ومنهل الأدباء والفضلاء . كشف عن دارس أخبار الغابرين ، وتحدث عن الخليقة منذ أن بدأ الله تعالىٰ الخلق والتكوين ، وصوّر الإنسان ، وبسط الأرض ، ورفع السماء ، حتى يوم يطويها كطيّ السجلّ للكتب ، وأخبر عما بعد الموت : من حياة البرزخ ، وعما بعد النشور : من أهوال يوم القيامة ، وصور مشاهد الجنة والنار ، وأحوال أهليهما .

والقرآن الكريم أنقذ البشرية بهدايتها إلى التوحيد الخالص ، وبما وضع لعلاقات الناس من نظم وقواعد ، وبما قرر من حقوق وواجبات ، وتقويم للسلوك والخلق الإنساني ، على أسس العدالة والمساواة ، فوضع لكل شيء قدره ، وأعطى لكل أمر منزلته وأهميته ، فمق

بالإنسانية سموقاً ، لم يفقدها حرية الاختيار ، في الفعل والترك ، كما لم يأتها بتشريع خيالي يخلب الألباب ، ثم يتعثر عند التطبيق ، بل وفّق بين الواقعية في التطبيق ، وحرية الإنسان وقدرته على الاختيار ، لما قام عليه القرآن الكريم من أساس التوحيد الكوني ، المطابق للفطرة الإنسانية ، ولجميع أحداث العوالم المنظورة وغير المنظورة . فأخرج بذلك أمة ، صارت ﴿خير أمة أخرجت للناس﴾ .

المطلب الأوّل

المعجزة

الإعجاز لغة :

هو الفوت . يُقال : أعجزني الأمر أي فاتني .

وإثبات العجز ونسبته : أعجز أخاه إذا أثبت عجزه عن شيء ، أو جعله عاجزاً .

ووجدان العجز : أعجزت زيداً : أي وجدته عاجزاً .

الإعجاز اصطلاحاً :

أ ـ (أمر يعجز البشر متفرقين ومجتمعين عن الإتيان بمثله)[1] .

ب ـ (أن يأتي المدعي لمنصب من المناصب الإلهية بما يخرق نواميس الطبيعة ويعجز عنه غيره شاهداً على صدق دعواه)[2] .

وبالموازنة بين الاصطلاحين : نجد امتياز الثاني على الأوّل بما يلي :

---

(١) الزرقاني : مناهل العرفان ج ١/ ٦٦ . وأضاف للتعريف السابق : (أو هي أمر خارق للعادة ، خارج عن حدود الأسباب المعروفة ، يخلقه الله تعالى على يد مدعي النبوة ـ عند دعواه إياها ـ شاهداً على صدقه) . وهذا أولى من التعريف الأول .

(٢) الإمام الخوئي : البيان ج ١/ ٣٤ .

١ - تضمنه إمكان حدوث المعجزة على يد بشر ، في حين أن المتبادر من الأوّل تعميم العجز على جميع البشر . وإذا كان كذلك ، فمن هو صاحب المعجزة إذاً ؟ اللّهمّ إلاّ إذا فهمنا أن المقصود منه : هو عجز البشر بما هم بشر عن الإتيان بها .

٢ - أبان التعريف الثاني أن المعجزة ما يأتي به مدع لمنصب إلهي ، ودون ذلك ليس بمعجزة ، فمن جاء باكتشاف أو اختراع عجز عنه سائر الناس لجهلهم المؤقت ، فما ذلك بمعجزة ، وفي هذا تحديد سديد ، لأن الجهل عجز آني وليس أبدياً ، من جهة ، ولأن الإعجاز في مقابل الجهل ليس بخرق لنواميس الطبيعة ، من جهة أخرى .

٣ - إن المعجزة خرق للعادة الجارية ، والقوانين الطبيعية ، دون أن تكون مستحيلة بذاتها ، بحيث يبطلها العقل ، كإبطال اجتماع النقيضين ، أو ارتفاعهما ، بل هي محكومة بقانون العليّة العام . لأنها تصرف ما وراء الطبيعة بالطبيعة .

٤ - تضمن التعريف الثاني : إن ثبوت العجز دليل صدق دعوى المنصب الإلٰهي ، أو أن دعوى المنصب الإلٰهي تثبت بعد ثبوت دعوى الإعجاز . ويمكن القول إن المعجزة هي :

ما يأتي به إنسان بتأييد إلهي ، ويعجز عنه غيره ، غير مستحيل بذاته عقلاً ، ويخرق السنن الطبيعية ، إثباتاً لمنصب إلهي يدعيه . فعناصر المعجزة الأساسية بناء على هذا التعريف :

١ - عجز الآخرين عنها .

٢ - إنها خرق للقوانين الطبيعية .

٣ - إنها ليست مستحيلة عقلاً .

٤ - إنها في صدد إثبات دعوى المنصب الإلٰهي

لذا فإن من يأتي بأمر بناء على الحس والتجربة ، ليس بمعجزة .

لعدم توافر خرق القوانين الطبيعية فيه . فالصعود إلى القمر مثلاً أو المريخ ليس بمعجز . لأنه قائم على التجارب ، مسبوق بتعلم وتدارس وتجارب ، فاقد لصفة خرق القوانين الطبيعية ، وكذا الحال في معالجة الأمراض ـ مثلاً ـ بالإيحاءات النفسية ، أو المواد المشعّة ، أو أي ابتكار لمرض عضال ، ولأن عجز الآخرين عن القيام بمثل هذه الأمور ، ليس عجزاً مطلقاً ، بل هو عجز نسبي ، سببه عدم التعلم ، أو الجهل بالتجربة ، فكما صعد إلى القمر إنسان غربي ، صعد إليه إنسان شرقي ، ولهذا فإن مثل هذه الأمور ليس فيها خرق للعادة الطبيعية الجارية في تسخير قوى الطبيعة لمشيئة الإنسان ، بل هي موافقة لها متفقة معها تماماً . ولا تعدو أن تكون إخضاع قوى الطبيعة لإرادة الإنسان .

والقرآن الكريم يقرر حقيقة لطف الله تعالىٰ ، بتذليل قوى الأرض والسماوات لعقل الإنسان . قال سبحانه : ﴿ألم تروا أن اللّٰهَ سخّر لكم ما في السماوات وما في الأرض وأسبَغ عليكم نِعَمَهُ ظاهرة وباطنة ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير﴾ [سورة لقمان ، الآية : ٢٠] . وواضح أن النبي الكريم ﷺ بقرآنه العزيز خرق النواميس الطبيعية ، وجاء بمعجز من غير سبق تعلم وتعليم ، معجز للإنس والجن ، على أن ما جاء به لا يحيله العقل ، لأنه ﷺ لا يدعيه من نفسه بل من الله تعالىٰ .

المطلب الثاني
الحاجة إلى المعجزة

التلازم بين حاجة النبي إلى المعجزة وحاجة الناس إليها واضح وبين ، فليس بمقدور النبي ، أن يؤدي دوره بدونها ، والناس غير منقادين إلى ما جاء به هذا النبي ، ما لم يتحقق فيها العجز عن مجاراته فيما جاء به .

أ ـ حاجة النبي إلى المعجزة :

من المعلوم ، أن حاجة البشر إلى الهداية الإلهية ضرورة حياتية ، وفطرية ، تستلزمها طبيعة الإنسان ، واستعداده الخلقي وما أنيط به من دور في هذه الحياة .

وهذه الهداية واجبة على الله تعالىٰ وذلك :

١ ـ لعلم الله تعالى بحاجة الإنسان إليها ، فعدم علمه بها جهل يتنزّه عنه رب العالمين .

٢ ـ لكرم الله ولطفه ورحمته ، وقد كتب على نفسه الرحمة ـ فالبخل بها مع حاجة الناس إليها نقص ممتنع عنه سبحانه وتعالىٰ .

٣ ـ لقدرة الله تعالىٰ على هداية الناس ، إذ العجز نقص يستحيل على العلي القدير .

ونخلص من هذه القواعد العقلية ، إلى أن الهداية الإلهية واجبة على الله تعالىٰ وجوباً عقلياً . وهي تتطلب مبلّغاً عنه يؤديها إلى الناس ، وذلك هو النبي .

ولما كان العقل السوي يتطلب دليلاً على كل (دعوى) ، فمن ادّعى بسفارة عن الله تعالىٰ ، مقتضاها هداية الناس إلى حياة أفضل ، وعيش أرغد ، بتغيير واقعهم إلى واقع أمثل ، وإلزامهم بتكاليف وواجبات مؤداها إتيان امور وترك أخرى ، هذه السفارة المدعاة ، لا بد لها من دعم وإسناد ملزم . يقوم بيّنة على صدق المدعي ، ودليلاً على واقعيته ، وحقيقة النقل والتبليغ عن الله تعالى . وشاهد صدق ، وحجة بالغة على المخاطبين بها من الناس .

ومن هنا كانت المعجزة : ضرورة للدلالة على صدق النبوّة ، ولا مفرّ عنها لتأدية الأمانة التي تحملها النبي ﷺ . ولا يقوم مقام المعجزة أي أمر آخر ، في متناول الناس القيام به .

وبالمعجزة يقطع دابر المتنبئين ، إذ إن الناس تطالبهم بها بمجرد

ادّعائهم النبوة فيسقط في أيديهم ، ويظهر زيف ادعائهم ، وكذب مزاعمهم .

ب ـ حاجة الناس إلى المعجزة :

إن من لوازم النبوة ـ بالنسبة للناس ـ تكليفهم بأمور . فهم يُدعون بموجبها إلى التخلي عما هم عليه ، من علاقات وتنظيم ، وعقائد وأفكار ، وعواطف ومفاهيم و . . . والسير على نهج جديد ، بموجب الرسالة الجديدة .

والطلب إلى الناس تغيير ركائز عقائدهم ، وأُصول مناهجهم الاجتماعية ، وأعرافهم وما ألِفوه وورثوه ، لا شك أنه كلفة دونها سائر التكاليف . فلا بد من تحقيق استجابتهم ، والحصول على انقيادهم ، وطاعتهم ، طوعاً لا بالقهر والغلبة المادية ، والإكراه الجسدي ، ـ إذ لا إكراه في الدين ـ ولا يتحقق الإذعان إلّا صورياً إن لم يكن عن قناعة وإيمان ، وهذه الصورة من الاستجابة لا تتم إلّا بأمر خارق لنواميس الطبيعة ، يقفون عنده مذعنين طائعين ، ويتم ذلك بالمعجزة . قال سبحانه : ﴿**الر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد**﴾ [سورة إبراهيم ، الآية : ١] . فأخبر عزّ وجلّ أن المقصد الأساس للقرآن هداية الناس ، ولا يكون ذلك إلّا وهو حجة ، ولا يكون حجة على الناس ما لم يكن معجزة .

المطلب الثالث
القرآن المعجزة الكبرى الخالدة

إن عظم المعجزة نوعاً واستمراراً يتوقف على عظم الدعوة المراد إثباتها ، فإذا استعرنا لغة الرياضيات قلنا إن بينهما (تناسباً طردياً) .

فنحن نجد أن معجزات الأنبياء السابقين التي جاؤوا بها لتوثيق ودعم رسالاتهم السماوية ، والبرهنة على صدق نبوءاتهم ، إنما كانت

أبدية . لأن رسالاتهم كانت مؤقتة ، لفترة من الزمن . ولهذا لم تبق معجزة موسى ولا عيسى ولا سواهما . ونحن إنما آمنا بها ولم نرها ، لورودها في القرآن الكريم .

أما دعوى الرسول الأعظم ﷺ فكانت : أنه رسول الله وخاتم النبيين إلى الناس أجمعين . لذا جاءت معجزته ـ القرآن الكريم ـ بحجم هذه الدعوى . فهو معجزة باقية تتحدى العصور والدهور .

وقبل أن نقف على وجوه إعجاز القرآن حسبنا ـ لمعرفة عظمة القرآن ومدى ما يتملك من عناصر الخلود والبقاء ـ أن نعرف أبعاد شموله التي لم تتوافر في غيره .

أ ـ فبعده الشخصي : الذي يعني المخاطبين به ، يشمل الناس جميعاً دونما تمييز بين طبقة وأخرى ، أو تفرقة في الدين أو الجنس أو اللغة أو نحو ذلك ، قال تعالى :

﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ...﴾ [سورة الأعراف ؛ الآية : ١٥٨] .

﴿وما أرسلناك إلاّ رحمة للعالمين﴾ [سورة الأنبياء ؛ الآية : ١٠٧] .

ب ـ وبعده الزماني : الذي يعني الفترة الزمنية لنفاذ مفعوله ، فإنه يعمُّ كل زمان من لدن البعثة المباركة حتى قيام الدين . قال تعالى :

﴿... وأوحي إليّ هذا القرآن لأنذركم به ومَنْ بَلَغ ...﴾ [سورة الأنعام ؛ الآية : ١٩] .

جـ ـ وبعده المكاني : الذي يعني الرقعة أو الإقليم الذي يمتد إليه سلطانه ـ فإنه يعم المكلفين من البشر في الأرض أم في السماء براً أو بحراً أو جواً . قال تعالى : **﴿وما أرسلناك إلاّ كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾** [سورة سبأ ؛ الآية : ٢٨] .

د ـ وبعده الموضوعي : الذي يعني النواحي الإنسانية التي

نظمها ، فإن القرآن جاء ﴿تبياناً لكل شيء﴾ قال سبحانه : ﴿. . . ونزّلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء . . .﴾ [سورة النحل ، الآية : ٨٩] . ﴿. . . ما فرّطنا في الكتاب من شيء . . .﴾ [سورة الأنعام ، الآية : ٣٨] .

فقد حمل القرآن للناس : أفضل ما تحلم به شعوب العالم ، في مجال العقيدة ، والتشريع ، والأخلاق ، مما يحقق للفرد والجماعة السعادة في الدنيا والآخرة . كما قال الرسول ﷺ : (جئتكم بخير الدنيا والآخرة) .

ولقد حققت رسالة القرآن الكريم نهضة حضارية إنسانية ، شاملة كاملة ، غيرت مجرى الحياة ، وستظل الأماني الحضارية للشعوب تصبو نحوها وتحاول الرقي إليها .

إن هذا الشمول الشخصي والزماني والمكاني والموضوعي الذي احتواه القرآن الكريم يقوم حجة قاطعة على صدق دعوى الرسول الصّادق الأمين أنه خاتم الأنبياء والمرسلين ، وأن الله تعالىٰ : بعثه هادياً للبشرية قاطبة إلى يوم الدين .

ومنه يتبيّن : أن المعجزة تتناسب ـ طردياً ـ مع المنصب الإلٰهي الذي يدعيه صاحب المعجزة ، فحيث بشّر رسول الله ﷺ برسالة شاملة مستمرة فقد جاء بمعجزة هي كبرى المعجزات وباقية خالدة ما بقي النوع الإنساني .

المطلب الرابع
التحدي في القرآن

من دلائل الإعجاز في القرآن ، وكونه وحياً من الله تعالى ، أنه كتاب هداية ويتحدى الإنس والجن على أن يأتوا بسورة من مثله . . .

ولو تأملنا هذا التحدي الذي أعلنه القرآن الكريم ، لوجدنا له صورتين :

الصورة الأولى ـ موضوع التحدي :

لقد تحدى القرآن أن يؤتى بمثله ، بقوله تعالى : ﴿فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾ [سورة الطور ؛ الآية : ٣٤] . وتحدى أن يؤتى بعشر سور من مثله بقوله تعالى : ﴿. . . قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات . . .﴾ [سورة هود ؛ الآية : ١٣] . وتحدى أن يؤتى بسورة واحدة : صغيرة أو كبيرة ، في التشريع أو في العقيدة ، في القصص أو في الأخبار ، أو في أي موضوع طرقه القرآن بقوله تعالى : ﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله . . .﴾ [سورة يونس ؛ الآية : ٣٨] . ثم كرر التحدي بقوله : ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله . . .﴾ [سورة البقرة ؛ الآية : ٢٣] . ثم قال تعالى : ﴿فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا . . .﴾ [سورة البقرة ؛ الآية : ٢٤] . (فنفي القدرة لهم على ذلك بقضية عامة وأمر حتم لا تردد فيه . . . وهذا هو النهاية في بلوغ التحدي)[1] .

الصورة الثانية ـ جهة التحدي :

وجه القرآن الكريم التحدي إلى الإنس والجن ، في أظهر مظاهر قوتهم ومنعتهم : وهم مجتمعون ، ولكون بعض الاجتماعات تحصل بالأجسام مع تشتت الآراء والرغبات ، فأضاف القرآن صفة أخرى ، تشديداً في تحديهم وإظهاراً لعجزهم هي : تظاهرهم أي تآزرهم وتعاونهم في ذلك الاجتماع .

وليس هذا فحسب بل أضاف القرآن إلى تحديه الثقلين مجتمعين ومتعاونين : شهداءهم من دون الله ، فقد كانت العرب تزعم أن آلهتها تشهد لها يوم القيامة بأنها على حق . . .

ووقف العرب في دهشة وإعجاب ، وإكبار وإعظام ، أمام بلاغة

---

(١) العلوي اليمني الطراز ج ٣/ ٣٧٠

القرآن الكريم وفصاحته ، وغرابة أسلوبه في الجمع بين الفخامة والعذوبة ، وسلامة نظمه واعتدال تركيب مفرداته ، لفظاً ومعنى ، وتناسق حركات حروفه ، وهو في كل ذلك : أوله كآخره ، ووسطه كطرفيه ، بل ولجأوا إلى وسائل العنف والوقيعة برسول الله ﷺ وتعذيب المسلمين ، واستنفار المشركين ، وحشد قواهم ، عند ذلك نادى : ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾ [سورة الإسراء : الآية : ٧٨] . فإن قيل (إنما وقع العجز في الإنس دون الجن . فالجواب : أن الجن ليسوا من أهل اللسان العربي الذي جاء القرآن على أساليبه ، وإنما ذكروا في ـ الآية ـ تعظيماً لشأنه ، لأن للهيئة الاجتماعية من القوة ما ليس للأفراد ، فإذا فرض اجتماع الثقلين وظاهر بعضهم بعضاً ، وعجزوا عن المعارضة ، كان الفريق الواحد أعجز)[1] .

ولما لم يكن التحدي موجهاً للإنس دون الجن ، أو الثقلين دون الآلهة المزعومة ، أو لهؤلاء جميعاً في فترة دون الفترات الزمانية التالية ، وقد وقع التحدي ولا يزال ولو بسورة واحدة ـ موضوعاً ـ وإلى كل أولئك وسواهم ـ جهة ـ وقد توالت ألف وأربعمائة سنة وظهر من الناس ما شاء الله ، ومن الآلهة والأرباب البشرية والحجرية ما شاءت الأهواء . . . ولم يقو أحد على مجاراة القرآن ، في أي وجه من وجوه إعجازه ـ التي سنذكرها فيما بعد إن شاء الله ـ ثبت بذلك ، قصور جميع تلك القوى عنه ، وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً .

---

(١) وقال بعضهم : بل وقع العجز أيضاً والملائكة منويون في الآية ، لأنهم لا يقدرون أيضاً على الإتيان بمثل القرآن ، وقال الكرماني في غرائب التفسير إنما اقتصر في الآية على ذكر الجن والإنس لأنه ﷺ كان مبعوثاً إلى الثقلين دون الملائكة) انظر : معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي القسم الأول ص ٧ .

المطلب الخامس
وجوه الإعجاز في القرآن

القرآن معجز في كل وجه من وجوهه ، وحال من أحواله ، بداية ما نزل منه كآخر ما انتهى إليه ، ووسطه كطرفيه : نسيج فريد ، ونسق واحد ، ومستوى شاهق . وهو معجز في حركات حروفه ، وحروف كلماته ، وكلمات آياته وآيات سوره ، وسور مصحفه ، معجز فيما أخبر وفيها أنبأ ، وفيما أمر ونهى وفيما قرر ونفى ، معجز في الصياغة والنظم الموزون ، وفي التراكيب والمضمون . لا في عصر دون سائر العصور بل للجن والإنس إلى يوم يبعثون .

ولا أظن أن أحداً من العلماء والباحثين ، من القدامى والمحدثين ، أحاط علماً بما في القرآن الكريم من وجوه الإعجاز (وكيف يستطيع الممكن أن يدرك كلام الواجب)(١) . وغاية ما أدركوه أنفسهم أنهم وقفوا على وجوه للإعجاز في القرآن ذكروها في مباحثهم ، وهي قصارى جهدهم ، ومبلغ علمهم .

ومن اليقين أنه كلما تقدم الزمن ، وعكف الباحثون على دراسة القرآن ، كلما ظهرت وجوه إعجاز جديدة لم تكن معروفة من قبل . ولعلنا نشير إلى هذا فيما بعد .

وقديماً (سئل بندار الفارسي عن موضع الإعجاز في القرآن فقال : هذه مسألة فيها حيف على المفتي ، وذلك أنه شبيه بقولكم : موضع الإنسان من الإنسان ، فليس للإنسان موضع من الإنسان . . . وكذلك القرآن ، لشرفه لا يشار إلى شيء منه إلا وكان ذلك المعنى آية في نفسه ، ومعجزة لمحاوله ، وأهدى لقائله ، وليس في طاقة البشر الإحاطة بأغراض الله في كتابه ، فلذلك حارت العقول ، وتاهت البصائر

---

(١) الخوئي : البيان ص ٣٥

عنده)[1].

وعليه فإن تحديد بعض العلماء[2] وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، إن هي إلا وجوه إعجاز في القرآن، وليست وجوه الإعجاز فيه، لأنها غير منحصرة فيما ذكروه، بل هو كما قال تعالىٰ:

﴿ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمدُّه من بعده سبعة أبحُر ما نفِدَتْ كلمات الله إن الله عزيز حكيم﴾ [سورة لقمان؛ الآية: ٢٧].

ولسنا ـ الآن ـ بصدد استقصاء وجوه إعجاز القرآن التي ذكرها العلماء، وصنفوا فيها المؤلفات (وأنهى بعضهم وجوه إعجازه إلى ثمانين)[3] وإنما سنرتاد بعض رياض إعجازه[4] لنستنشق من عبير نفحاتها العاطرة، ما يبعث فينا الحياة ويوقظ فينا العزم، للمضي قدماً ـ من جديد ـ نحو جعل كتاب الله تعالىٰ مناراً نستهديه، ومنهجاً نلتزم به، وصراطاً مستقيماً إلى الله تعالىٰ نسلكه من أجل بلوغ كرامة الدارين، وسعادة النشأتين.

١ ـ بلاغة القرآن وفصاحته:

التاريخ لا يرتاب أن العرب العرباء بلغت من البلاغة في الكلام

---

(١) السيوطي، معترك الأقران ج ١/١١، الإتقان: ج ٢/١٢٠.

(٢) قال الباقلاني: وجه إعجازه: ما فيه من النظم والتأليف والترصيف، وأنه خارج عن جميع وجوه النظم المعتاد في كلام العرب، ومباين لأساليب خطاباتهم.

وقال الزملكاني: وجه الإعجاز راجع إلى التأليف الخاص به لا مطلق التأليف بأن اعتدلت مفرداته؛ تركيباً وزنة، وعلت مركباته معنى بأن يوقع كل فن في مرتبته العليا في اللفظ والمعنى.

وقال ابن عطية: الصحيح والذي عليه الجمهور والحذاق في وجه إعجازه أنه بنظمه وصحة معانيه وتوالي فصاحة ألفاظه. أنظر: السيوطي: الإتقان ج ٢/١١٩.

(٣) السيوطي: معترك الأقران ج ١/٣.

(٤) انظر أعلى أنواع الإعجاز: الزركشي، البرهان ج ٢/١٢١.

مبلغاً لم يذكره التاريخ لواحدة من الأمم المتقدمة عليهم ، والمتأخرة عنهم ، ووطئوا موطئاً لم تطأه أقدام غيرهم ، في كمال البيان ، وجزالة النظم ، ووفاء اللفظ ، ورعاية المقام ، وسهولة المنطق[1] .

وحيث كانت العرب قد شأت هذا الشأو البعيد في أساليب البلاغة ، وفنون الأدب ، رجالاً ونساءً ، فلهذا السبب ، تحدّاهم القرآن ، وهم على ما هم عليه من قدرة في البلاغة لا تـداني ولا تضارع ، وقوّة في البيان لا تضاهى ولا تبارى وسرعة في البداهة لا تجارى ، مع ما تختلج به من عزائم وحمية وهمم وعصبية ، والقرآن ضمنه ثلاث وعشرين سنة ـ تقريباً ـ يقرع أسماعهم ، بأنهم عاجزون عن مباراته ، فيما جاء به من كلام قرن بين الإيجاز والبلاغة ، والبيان والفصاحة وهو بلسان عربي مبين ، ليس شعراً ولا نثراً ، يفهمه العرب ، وهو خارج عن مألوفهم .

ومع هذا التحدي المثير المهيج ، ما استطاعوا إلّا النفور والالتجاء إلى خوض الحروب ، وبذل الأنفس والأموال ، لصد دعوته ، دونما جرأة على مجاراته . فلما لم تحصل معارضة منهم ، تحقق أنهم عاجزون عنها (لأن كل من توفرت دواعيه إلى الشيء ولم يوجد مانع منه ، ثم لم يتمكن من فعله ، فإنه يكون عاجزاً لأنه لا يكون معنى للعجز إلّا ذاك)[2] .

وقال الطبرسي : إن كل فعل لا يقع من فاعله ، مع توافر دواعيه ، وقوّة بواعثه عليه ، فإنه يدل على تعذّره ، فإذا ثبت ذلك ، وعلمنا أن العرب تحدّوا بالقرآن ولم يعارضوه ، مع شدة حاجتهم إلى المعارضة ، وقوّة دواعيهم ، علمنا أنها متعذرة عليهم[3] .

---

(١) الطباطبائي . الميزان ج ٦٦/١ .

(٢) العلوي اليمني : الطراز ج ٣٧١/٣ .

(٣) اعلام الورى بأعلام الهدى : ص ٣٠ .

وإذا ثبت عجز العرب ، وهم أفصح الفصحاء وأبلغ البلغاء وفرسان هذا الميدان ، ثبت إعجازه البلاغي ، وكان حجة عليهم ، وعلى من سواهم من باب أولى .

وفيما يلي أمثلة مما جاء في القرآن الكريم من البلاغة :

أ ـ قال تعالى : **﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق . . .﴾** [سورة الأنبياء ؛ الآية : ١٨] . وفيها : كأن الحق ـ وهو معنى مجرد ، ولعظم شأنه ـ قذيفة ثقيلة ، ترمى على الباطل الهش الواهي ، فيرديه جثة هامدة ، وقد استخدمت في هذا المشهد العظيم ، للصراع بين الحق والباطل (الفاء) التعقيبية ، ولم تستخدم (ثمّ) ، أو غيرها ، لطيّ المشاهد بسرعة ، وبيان قدرة الحق الفائقة على دمغ الباطل ، والسرعة الخاطفة التي تم خلالها إزهاقه . والإزهاق هو خروج الروح لبيان حتمية انهيار الباطل ، وانعدام وجوده ، وبطلان أثره .

ولقد أجاد السيد الرضي حين لاحظ أن (الدمغ إنما يكون عن وقوع الأشياء الثقال ، على طريق الغلبة والاستعلاء ، فكأن الحق أصاب دماغ الباطل فأهلكه)[1] .

ب ـ قوله تعالى : **﴿إذا أُلقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهي تفور تكاد تميَّز من الغيظ . . .﴾** [سورة الملك ؛ الآيتان : ٧ ـ ٨] .

والآية تتحدث عن أهل النار . وعملية «الإلقاء» تجسيد لمشهد مروِّع بحد ذاته ، تحس بحركته متجسمة بمنظر إلقاء المجرمين في النار . وهي حانقة عليهم ، تجذبهم إليها بشهيقها ، وهم مروَّعون ، يسمعون ذلك الشهيق المرعب ، فتخلع له قلوبهم ، قبل أن تلتهمهم ألسنتها ، ويحرقهم لهبها ، ويشويهم مهلها وقطرانها . . .

ولقد استوقفت هذه الصورة الرائعة المرعبة السيد الرضي ، فذكر

---

(١) تلخيص البيان في مجازات القرآن : ص ١٤١ .

أن الله تعالى (وصف النار ـ نعوذ بالله منها ـ بصفة المغيظ الغضبان ، الذي من شأنه ـ إذا بلغ ذلك الحدّ ـ أن يبالغ في الانتقام ، ويتجاوز الغايات في الإيقاع والإيلام)(١) .

جـ ـ قوله تعالى : ﴿خُذِ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾ [سورة الأعراف ، الآية : ١٩٩] .

جمعت هذه الآية جميع مكارم الأخلاق لأن العفو : الصفح عمّن أساء ، والرفق في كل الأمور والمسامحة والإغضاء . وفي قوله (وأمر بالمعروف) صلة الأرحام ، ومنع اللسان عن الكذب والغيبة ، وغض الطرف عن كل محرم وغير ذلك ، وفي الإعراض عن الجهال ، الصبر والحلم وكظم الغيظ ، فهذه الألفاظ وإن قلّت فقد أنافت معانيها على الغاية ، ولم تقف على حد ونهاية ، وهذا النوع أعلى طبقات الفصاحة مكاناً ، وأعوز إمكاناً(٢) .

د ـ قال تعالى : ﴿ولكم في القصاص حياة . . .﴾ [سورة البقرة ، الآية : ١٧٩] .

وبالموازنة بين هذه الآية وما أُثر عن العرب من قولهم (القتل أنفى للقتل) تتميز هذه الآية بأمور منها : أنه ليس في الآية ما في العبارة من تكرير . وألفاظ الآية تعكس روح الإسلام السلمية والعبارة تنضح بالدم . والآية تقرر الحياة في القصاص ، فهي تامة وواقعة . أما العبارة فليست تامة لأنه ليس كل قتل نافياً للقتل إلاّ إذا كان قصاصاً ، فشتان ما بين الآية والعبارة .

هـ ـ قوله تعالى : ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأنَّ به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين﴾ [سورة الحج ، الآية : ١١] .

---

(١) المصدر السابق ص ٢٥٣ .

(٢) العلوي اليمني : الطراز ٣/١٣٧ .

إن القرآن الكريم كما يصور ببلاغة أسلوبه ، المعاني المجردة فإنه يصور الحالات النفسية والمعنوية : إنه (يريد أن يوضح حالة تزعزع العقيدة . . . فيرسم لهذا التزعزع صورة تهتز وتترنح وتوشك على الانهيار . . .

إن الخيال ليكاد يجسم هذا (الحرف) الذي يَعبدُ الله عليه هذا البعض من الناس ، وإنه ليكاد يتخيل الاضطراب الحسي في وقفتهم وهم يتأرجحون بين الثبات والانقلاب . إن هذه الصورة لترسم حالة التزعزع لأنها تنطبع في الحس وتتصل منه بالنفس)[1] .

وهكذا ، فإن ما ورد في القرآن الكريم من الاستعارات والمجازات والكنايات والتمثيل والإيجاز والتورية وغيرها الشيء الكثير . ومن أرادها فليراجعها في مظانّها[2] .

ومجمل القول أن القرآن ـ في مجال البلاغة ـ بلغ مرتبة لا تُدانى[3] وهذا من عجيب أمر القرآن .

٢ ـ المعارف القرآنية :

نجد في القرآن الكريم من المعارف الاعتقادية ، ما يطابق العقل

---

(١) سيد قطب : التصوير الفني في القرآن ٤١ ـ ٤٢ .

(٢) راجع السيوطي ، الإتقان ج ٣٦/٢ وما بعدها . الباقلاني : إعجاز القرآن ص ٢٦٢ ـ ٢٨٣ . ابن الزملكاني : التبيان في علم البيان . اليمني العلوي : الطراز المتضمن لأسرار البلاغة .

(٣) جاء في النقل محاولة مسيلمة الكذاب . معارضة سورة الفيل . فكان هذيانه : (الفيل ، ما الفيل ، وما أدراك ما الفيل ، له ذنب وبيل ، وخرطوم طويل) الطباطبائي ، الميزان : ج ٦٧/١ . كما حاول بعض النصارى معارضة سورة الكوثر فقالوا : (إنا أعطيناك الجواهر ، فصل لربك وجاهر ، ولا تعتمد على قول ساحر . . .) الخوئي : البيان ، ص ١١٢ ، نقلاً عن كتيب أصدرته المطبعة الإنكليزية ـ الأمريكية !! ببولاق مصر سنة ١٩١٢ .

راجع إن شئت أسئلة الملاحدة عن إعجاز القرآن والجواب عليها : العلوي اليمني : الطراز ج ٣٧٢/٣ وما بعدها .

السليم ويوافق البرهان القويم ، فقد تعرض إلى صفات الله تعالى ، وذكر الأنبياء والرسل السابقين وأقام الدلائل على المعاد ، بأسلوب عقلي رصين ، يستحيل معه على بشر ـ أمي كالنبي ﷺ نشأ في بيئة جاهلية ، مشركة وثنية ، أن يأتي بمثله ، وبما احتوى من فلسفة شاملة كاملة ومن دون سبق تعلم أو دراسة :

أ ـ صفات اللّه :

جاء في القرآن الكريم : ﴿وإلهكم إلهٌ واحدٌ لا إله إلاّ هو الرّحمٰن الرّحيم﴾ [سورة البقرة ؛ الآية : ١٦٣] .

﴿أمْ خلِقوا من غير شيء أم هم الخالقون﴾ [سورة الطور ؛ الآية : ٣٥] .

﴿هو الله الخالق البارىء المصوِّر له الأسماء الحسنى يسبِّح له ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾ [سورة الحشر ؛ الآية : ٢٤] .

﴿بديع السماوات والأرض وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كُنْ فيكون﴾ [سورة البقرة ؛ الآية : ١١٧] .

فهل بإمكان بشر أمي أن يأتي ـ من عنده ـ بمثل هذه الفلسفة ، وهذه المعارف التي يحتو لها العقل إذعاناً وتسليماً .

إن قوله تعالىٰ : ﴿أمْ خلِقوا من غير شيء أمْ هم الخالقون﴾ يقرر البديهيات الآتية :

- الإنسان موجود (بالحس والوجدان) .
- الإنسان حيٌّ (بالحس والوجدان) .
- الإنسان لم يُخلق من عدم (لأن الوجود من العدم محال) .
- الإنسان لم يخلق نفسه (لأنه لو كان موجوداً لاستغنى بوجوده عن إيجاده) .

● فلا بد له من خالق ، وهذا الخالق حي . . . وهـذا دليل وجـود الله تعالى .

ومن الأدلة على وحدانية الله الدليل العقلي في قوله تعالى :

﴿لـو كان فيهما آلهة إلاَّ الله لفسدتا . . .﴾ [سـورة الأنبياء ؛ الآيـة : ٢٢] . لأنـه لـو فـرض للعـالم صـانعـان لاختلت وحـدة النـظام الكـوني المشاهدة المحسوسة . ولكان العجز يلحقهما أو يلحق أحدهمـا ، وبيان ذلك : لو أراد أحد الصانعين إبقاء حي وأراد الآخر إماته ، فإما أن تنفـذ إرادتهما وهذا مستحيل لتناقضهما ، وإما أن لا تنفـذ إرادتهما فيؤدي إلى عجزهما معاً ، وإما أن لا تنفذ إرادة أحدهمـا فيؤدي إلى عجزه ، والإلـه الصانع لا يكون عاجزاً . وبهذا تثبت وحدانية الله تعالى .

وهكـذا نجد في الآيـة محاججـة عقليـة رصينـة لا يملك العـاقـل إزاءها إلاَّ الإيمان بنبوّة محمد ﷺ والتصديق برسالته .

ب ـ إرسـال النبيين :

جاء في القرآن الكريم :

﴿كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنـزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين النـاس فيما اختلفـوا فيه ، ومـا اختلف فيه إلاَّ الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم فهـدى الله الذين آمنوا لما اختلفـوا فيه من الحق بـإذنه ، والله يهـدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ [سورة البقرة ؛ الآية : ٢١٣] .

جـ ـ المـعـاد :

ومما جاء بشأن المعاد قوله تعالى :

﴿ومـا خلقكم ولا بعثكم إلاَّ كنفسٍ واحدةٍ إن الله سميعٌ بصيـر﴾ [سورة لقمان ؛ الآية : ٢٨] .

﴿. . . قل الله يبدؤ الخلق ثم يعيده فأنى تؤفكون﴾ [سورة يونس ؛

الآية : ٣٤] .

﴿. . . كما بدأنا أول خلق نعيده . . .﴾ [سورة الأنبياء ؛ الآية : ١٠٤] .

﴿لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس . . .﴾ [سورة غافر ؛ الآية : ٥٧] .

﴿يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب . . .﴾ [سورة الحج ؛ الآية : ٥] .

(إن الابتداء إيجاد من غير احتذاء ، فمن هو قادر على الابتداء كان أولى أن يكون قادراً على الإعادة بطريق الأحقّ)(١) .

٣ ـ استقامة بيان القرآن :

ومن دلائل الإعجاز في القرآن وكونه وحياً إلهياً : ما جاء به من معالم الرشاد والهداية ، كالحقائق الإلهية والنبوءات ، وما وضع من قواعد تشريعية في مجالات الاقتصاد والسياسة والاجتماع والتجريم والعقاب ، وغيرها ، وما أورد من نظم العبادات وفضائل الأخلاق ، وما سرد من أحداث التاريخ ، وما عرض من علوم كونية وفلكية وطبيعية ، وما ضرب من أمثلة ، وساق من حكم ومواعظ ، وما ذكر من احتجاجات عقلية مذهلة، وما بين من تصوير للدنيا ووصف لمشاهد البرزخ والقيامة ، ونحو ذلك ، وهو ينزل نجوماً في مدة ثلاث وعشرين سنة ، في ظروف متفاوتة : ليلاً ونهاراً ، في مكة والمدينة ، في الحرب والسلم ، في المحنة والرخاء ، في عام الفتح وعام الحزن ، وعلى سعة ما جاء به فليس فيه أدنى اختلاف أو تعارض أو تناقض من أوّله إلى نهايته .

ولو لم يكن القرآن روحاً من أمر الله لاقتضى حدوث الاختلاف

(١) العلوي اليمني : الطراز ج ١/١٥٥ .

والتعارض والتفرق وعدم الملائمة بين أجزائه ومباحثه . فإن الشاعر العربي ينظم القصيدة حولاً ثم يعيدها فيجد الحشو والزيادة والنقصان ونحو ذلك .

﴿أفلا يتدبرون القرآن ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾ [سورة النساء ؛ الآية : ٨٢] .

٤ ـ تشريعات القرآن :

مما يدهش كل عاقل ، ولا يمكن تعليله إلاّ بكون القرآن وحياً من العليم الحكيم ، هو هذا التشريع الأمثل للإنسانية ، والقانون الأقوم للحياة ، الذي جاء به لتنظيم شؤون المجتمع البشري ، وكلما مرّ قرن وجاء آخر ، أثبت القرآن أصالته وشموله للهيمنة على جميع شؤون الحياة ، على أحسن وأكمل وجه .

وليس من شك أن العرب بخاصة ، وأمم الأرض بعامة في عهد فجر الإسلام لم تكن تملك من الأنظمة والقوانين ما عليه دول العالم اليوم . فإذا ما وازنّا أنظمة الدول الحديثة وما جاء به القرآن الكريم ـ قبل ألف وأربعمائة سنة ـ من مبادىء الحق والعدل والمساواة والحرية ، والدعوة إلى السلام ، ومكافحة الظلم والفقر والترف والجهل ، والتمييز العنصري ونحو ذلك ، مما أخذت الدول المتحضرة الحديثة على نفسها الالتزام به ، في دساتيرها وقوانينها ، وهدفت إليه المنظمات والمؤسسات الدولية في خططها وبرامجها ، لاتضح مدى تفوّق القرآن الكريم من جهة ، وسبقه وكمال ما جاء به من جهة أخرى . ولما بقي شك أنّ ما جاء به الرسول الأعظم ﷺ لم يكن إلاّ من عند الله الخبير البصير .

وحسبنا ، أن نشير فيما يلي ، إلى بعض القواعد الكلية ، التي أصبحت اليوم من مبادىء دساتير الدول ، ومواثيق المنظمات والاتفاقات الدولية ، دون أن نتوغل في بيان دلالاتها وعمقها وشمول أحكامها :

أ ـ الحكم بالعدل :

قال تعالى : ﴿إن الله يأمر بالعدل . . .﴾ [سورة النحل ؛ الآية : ٩٠] .

﴿. . . وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل . . .﴾ [سورة النساء ؛ الآية : ٥٨] .

ب ـ حقن الدماء :

﴿ولا تقتلوا النفس التي حرَّم الله إلاَّ بالحق . . .﴾ [سورة الإسراء ؛ الآية : ٣٣] .

﴿. . . أنه من قتل نفساً بغير نفسٍ أو فسادٍ في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً . . .﴾ [سورة المائدة ؛ الآية : ٣٢] .

جـ ـ تحريم الفساد :

﴿قلْ إنما حرَّم ربي الفواحشَ ما ظهرَ منها وما بطن والإثمَ والبغيَ بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزِّل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾ [سورة الأعراف ؛ الآية : ٣٣] .

د ـ جعل المسؤولية شخصية :

﴿. . . ولا تزر وازرة وزر أُخرىٰ . . .﴾ [سورة الأنعام ؛ الآية : ١٦٤] .

هـ ـ تفضيل السلم على الحرب :

﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها . . .﴾ [سورة الأنفال ؛ الآية : ٦١] .

و ـ تشريع الدفاع قطعاً لدابر الفتنة والعدوان :

﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ، فإن انتهوا فلا

عدوان إلا على الظالمين﴾ [سورة البقرة ؛ الآية : ١٩٣] .

ز ـ فرض المساواة ، وجعل التفاضل على أسس موضوعية متاحة للجميع هي التقوى والعلم والجهاد :

﴿ . . . إن أكرمكم عند الله أتقاكم . . . ﴾ [سورة الحجرات ؛ الآية : ١٣] .

﴿ . . . قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون . . . ﴾ [سورة الزمر ؛ الآية : ٩] .

﴿ . . . وفضّل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً﴾ [سورة النساء ؛ الآية : ٩٥] .

ولقد جاء القرآن الكريم بالأحكام الاعتقادية ، والأخلاقية والعلمية التي تشمل العبادات والمعاملات سواء ما تعلق منها بتنظيم أحكام الأسرة كالنكاح والطلاق والإرث ، أو الأحكام المالية ، كالبيع والرهن وسائر العقود ، وأحكام القضاء والشهادات واليمين وأحكام الجرائم والعقوبات ، وأحكام نظام الحكم وحقوق الحاكم والمحكومين وواجباتهم ، وأحكام العلاقات الدولية من معاهدات واتفاقات في حالتي السلم والحرب ، وأحكام الأجانب ، والأحكام المتعلقة بموارد الدولة ، ومصارفها ، والثروات العامة . . . الخ .

فإذا جاء القرآن بما يكفل جميع احتياجات الإنسانية في كل صعيد ، وعلى كل مستوى ، فهل يخطر ببال عاقل أنه من صنع أمي لا يعرف القراءة ولا الكتابة ، ولم يتعلم من أحد ؟ اللّهُمَّ إلا من العلي القدير ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان . . . ﴾ [سورة الشورى ؛ الآية : ٥٢] . ﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطّه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون﴾ [سورة العنكبوت ؛ الآية : ٤٨] .

٥ ـ قصص القرآن وأنباؤه الغيبية :

نطوت السور القرآنية على كثير من أخبار القرون الأولى والأمم لغابرة والشرائع الداثرة ، منذ بدء الخليقة حتى بعثة النبي ﷺ ، في وقت لم يكن يعرف القصة الواحدة إلا المتفرغ من أخبار أهل الكتاب .

والقرآن الكريم في عرضه تلك الأحداث ، وسرده تلك الوقائع ، كأنه شاهد عيان يعرض التفاصيل ، ويصوّر كل المشاهد تصويراً كأنها شخوص متحركة .

وفي القرآن إخبار بالمغيبات عن أمور هامة ، وقد وقعت هذه لأمور كلها وكما أخبر عنها . وفي كل حال يؤكد القرآن على عدم علم النبي ﷺ بهذه الأمور قبل أن توحى إليه :

قال تعالى : **﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا . . .﴾** [سورة هود ؛ الآية : ٤٩] . وقوله سبحانه : **﴿نحن نقصّ عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين﴾** [سورة يوسف ؛ الآية : ٣] .

أ ـ القصص :

قصة آدم :

قال تعالى : **﴿ولقد خلقناكم ثم صوّرناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين﴾** [سورة الأعراف ؛ الآية : ١١] .

قصة موسى : **﴿وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة . . .﴾** [سورة البقرة ؛ الآية : ٦٧] .

قصة هارون : **﴿. . . وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي . . .﴾** [سورة الأعراف ؛ الآية : ١٤٢] .

قصة فرعون : ﴿إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يُذبّح أبناءهم ويستحي نساءهم إنه كان من المفسدين﴾ [سورة القصص ؛ الآية : ٤] .

قصة داود وسليمان : ﴿ وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث . . .﴾ [سورة الأنبياء ؛ الآية : ٨٧] .

قصة إبراهيم : ﴿أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى قل ءأنتم أعلم أم الله . . .﴾ [سورة البقرة ؛ الآية : ١٤٠] .

وهكذا بالنسبة إلى زكريا ويحيى وعيسى ونوح وهود وشعيب وسائر الأنبياء والمرسلين ، ومسك ختامهم :

قصة محمد ﷺ : ﴿وما محمد إلاّ رسول قد خلت من قبله الرّسل . . .﴾ [سورة آل عمران ؛ الآية : ١٤٤] .

ب ـ الأنباء الغيبية :

كان القرآن واثقاً جازماً من وقوع الأحداث المهمة التي أنبأ عن وقوعها ، وقد وقع جميع ما أنبأ به ، دون أدنى خلاف .

ولا ريب أن هذا الجانب من جلائل وجوه إعجازه، ودلائل كونه وحياً من الله تعالى .

قال تعالى : ﴿غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين . . .﴾[سورة الروم: الآيتان: ٢ ـ ٣] . ولقد وقع الغلب للروم بأقل من عشر سنين وهو معنى (بضع) سنين .

وقال تعالى : ﴿أم يقولون نحن جميع منتصر سيُهزم الجمع ويولون الدبر﴾ [سورة القمر ؛ الآيتان : ٤٤ ـ ٤٥] مخبراً عن قول أبي جهل يوم بدر : (نحن ننتصر اليوم من محمد وأصحابه) فأباده الله ، وأخزى جمعه ونصر المسلمين .

وقال سبحانه : ﴿وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم . . .﴾ [سورة الأنفال ؛ الآية : ٧] وقد نزلت في واقعة بدر ، والمسلمون على ما هم عليه من الضعف والقلة ، والإشفاق من الهزيمة ، والكافرون على ما هم عليه من العدة والعدد ، وقد وفّى الله للمؤمنين بوعده ، ونصرهم وقطع دابر الكافرين .

وكقوله تعالى : ﴿. . . لتدخلنّ المسجد الحرام إن شاء الله آمنين . . .﴾ [سورة الفتح ؛ الآية : ٢٧] .

وكقوله : ﴿لن يضروكم إلاّ أذى . . .﴾ [سورة آل عمران ؛ الآية : ١١١] .

فالإخبار بالغيب ، وتحقق صدقه ، لا يكون من بشر إطلاقاً ﴿إن هو إلاّ وحي يوحى علمه شديد القوى﴾ [سورة النجم ؛ الآيتان : ٤ ـ ٥] .

٦ ـ الإشارات العلمية :

ذكر القرآن الكريم في معرض الاستدلال والاحتجاج ، وبيان دلائل وآيات قدرة الله تعالى ، بعض الإشارات العلمية التي لم يكتشف أمر بعضها إلاّ في عصر الذرة ، والأقمار ، وغزو الفضاء . منها قوله تعالى :

أ ـ ﴿أوَ لم يرَ الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كلَّ شيء حي أفلا يؤمنون﴾ [سورة الأنبياء ؛ الآية : ٣٠] .

وفيها إشارة إلى تاريخ المجموعة الشمسية ، ووحدتها في الأصل ، وانفصال الأجرام بعضها عن بعض تدريجياً .

كما أن فيها إشارة إلى أصل الحياة وهو الماء .

ب ـ ﴿وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين﴾ [سورة الحجر ؛ الآية : ٢٢] .

وتشير الآية إلى دور الرياح في هطول الأمطار ، ودورها في التفريغ الكهربائي بين شحنات السحاب ، ودورها في نقل لقاح النبات . . . الخ .

جـ ـ ﴿فلا أقسم بربِّ المشارق والمغارب . . .﴾ [سورة المعارج ؛ الآية : ٤٠] ، ﴿رب المشرقين ورب المغربين﴾ [سورة الرحمن ؛ الآية : ١٧] ، ﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾ [سورة النازعات ؛ الآية : ٣٠] ، وفيها إشارة إلى بيضوية الأرض إذ لو كانت مُسطّحة لكان لها مشرق واحد ومغرب واحد . وكذلك عبر تعالىٰ عن خلق الأرض بـ ﴿دحاها﴾ والدحية هي البيضة .

د ـ ﴿ومن كلِّ شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكُرون﴾ [سورة الذاريات ؛ الآية : ٤٩] . وفيها إشارة إلى أن الزوجية منبثة في كل الموجودات من حيوانات ونباتات وجمادات . وإن الذرة زوج ففيها الالكترون السالب الشحنة والبروتون الموجب الشحنة .

هـ ـ ﴿يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم﴾ [سورة الزلزلة ؛ الآية : ٦] . فإن قلم المشواف أثبت إمكانية حفظ وتخليد دقائق الأعمال .

وإذا كان هذا من عمل الإنسان فالأمر أيسر وأهون بالنسبة للخالق البارىء المصوِّر .

و ـ ﴿تعرجُ الملائكة والروح إليه . . .﴾ [سورة المعارج ؛ الآية : ٤] .

﴿يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور﴾ [سورة سبأ ؛ الآية : ٢] .

﴿ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون﴾ [سورة الحجر ؛ الآية : ١٤] .

﴿ومعارج عليها يظهرون﴾ [سورة الزخرف ، الآية : ٣٣] .

وفيها إشارات إلى فتح باب الأسفار الفضائية وعلى أنها تتم بمسارات منحنية وليست مستقيمة . فإذا ما قدر للناس القيام برحلات إلى القمر أو سائر الكواكب فإن سيرهم سيكون باتجاهات منحنية أو متعرجة .

ز - ﴿بلى قادرين على أن نسوّي بنانه﴾ [سورة القيامة ، الآية : ٤] .

من دقائق الخلقة بصمات الأصابع ، وقد ذكرت هذه الآية الكريمة حقيقة علمية مذهلة كان لها أخطر الأدوار في العلوم الجنائية ، تلك الحقيقة هي اختلاف بصمات أصابع اليد الواحدة ، فليس في الدنيا إصبع يشبه في خطوطه إصبعاً آخر .

والجدير بالذكر أن الآية - كسائر الآيات - ليست بصدد إعطاء وسيلة فذة لرجال المباحث الجنائية ، ولكنها بصدد بيان عظمة وقدرة الله على البعث والنشور بكل دقة حتى إعادة خطوط أصابع كل إنسان إلى ما كانت عليه في حياته . ولكن هذه الآية - كسائر الآيات - أمكن الإفادة منها علمياً .

هذه الوجوه من الإعجاز[1] وإن كانت مستحيلة بالنسبة لبشر مجرد ، كما ثبت ذلك ، وتحقق العجز من لدن بعثة النبي ﷺ حتى يومنا الحاضر ، إلاّ أنها غير مستحيلة عقلاً ، لأن الرسول ﷺ وإن كان بشراً ولكن ما جاء به ليس من عنده وإنما من عند الله تعالىٰ .

فهذه الوجوه من الإعجاز في القرآن جاء بها رسول الله لا باعتباره الشخصي وكونه بشراً كسائر الناس ، بل باعتباره الوظيفي وكونه يمتاز

(١) للوقوف على المزيد من معجزات القرآن العلمية راجع : الأستاذ نوفل ، الله والعلم الحديث ص ١٥٥ ، الفندي : الدكتور محمد جمال الدين روائع الإعجاز في القرآن الكريم . وغيرهما من الكتب الحديثة .

عن سائر البشر بصلته بالله تعالى لأنه رسول من الله القادر على كل شيء .

وكفى بواحد من هذه الوجوه دليلاً على صدق رسالة النبي ﷺ وشاهداً على ما جاء به من عند الله .

المبحث الثالث
القرآن الهداية المثلى

إن ألزم الأمور التي ينبغي أن يعلمها الإنسان ، هي معرفة مبدئه ومعاده . وإن أحطّ ضروب الجهل ، أن يجهل الإنسان من أين بدأ حياته ، وإلى أين سيصير .

وليست على وجه الأرض فلسفة شاملة ، تفسر لنا الكون والحياة والإنسان على أسس لا يملك العقل السليم إلاّ الإذعان لها ، والانقياد إليها ، كالفلسفة الإسلامية الفذة ، التي لا تدع مجالاً للريبة أو الشك ، في قوّة حججها وبراهينها ، لمن ألقى السمع وهو شهيد .

والقرآن الكريم في فلسفته عن الكون والحياة والإنسان ، سمق سموقاً بعيداً عن خرافات (الطفرة) ، و (الصدفة) ، و (تنوع الأنواع) ، و (القول بالمادة) ، ونحوها من المقولات التي جاءت عليها المكتشفات الحديثة ، والتجارب العلمية ، ورمتها في زاوية الأفكار البائدة ، والنظريات الكاسدة .

في حين أكدت هذه التجارب والمكتشفات ، كل ما أشار إليه القرآن ، من أمهات العلوم ، وصدقته فيما ألمح إليه من عجائب الأمور .

وليس على وجه الأرض ، كتاب دين مثل القرآن ، يدل على العلم ، ويدعو إليه ، ويثبت عليه ، ويحث على الاختراع والاكتشافات ، والبحث والتحري ، ويجلّ العلماء ، ويرفع مكانتهم ،

ويعلي شأنهم .

والعلم الذي يدعو إليه القرآن ، هو علم نافع ، سواء علم الأديان أو العقائد أو العبادات أو علم الأبدان ، أو علم طبقات الأرض ، أو علم الأجنة ، أو علم الصحة الغذائية أو الوقائية ، أو علم الفضاء ، أو غيرها من العلوم التي تطرقت إليها الآيات الكريمة والتي لا مجال لبيانها في هذا الموجز .

ومما يمتاز به القرآن الكريم على كتب الأديان البحتة ، وكتب العلوم البحتة ، أنه يوحّد ويربط بين دقائق المخلوقات ، وعجائب الكائنات ، وبين الصانع القادر جل شأنه من حيث الخلق والتدبير والتصرف والتنظيم ووحدة الإرادة والقصد والنظام .

إن تحطيم الذرة قد حطم كل فكرة لا تتصل بالله تعالىٰ ، لما في الذرة من قوى هائلة ، ونظام دقيق ، سبق للقرآن الكريم أن سجّل كشفاً عنها يذهل العقول حين أشار إلى الزوجية في كل شيء ، وكان العلماء يعتقدون جازمين أن الذرة أصغر ما في المادة .

وفي عصر كان العالم فيه يغط في سبات عميق ، أوضح القرآن الكريم ، ما أودع الله تعالىٰ في الإنسان من قدرات ، تؤهله لغزو الفضاء وتسخير الكواكب والشموس ، وجميع الطاقات الكونية لصالح البشرية ، لأن الله تعالىٰ أخبره : أنه جلّ شأنه سخر للإنسان جميع ما في السماوات والأرض لخدمة مصالحه في كثير من الآيات .

وإن تمزيق شرنقة الجمود الفكري والعلمي ، والصعود إلى القمر وغزو المريخ وغيرها ، ليكشف جلياً عن دقيق صنع الله تعالىٰ وحكمته ، في تدبير الكون ، وعظمة سلطانه من جهة ، ويكشف عن مدى التفوق العلمي والتقدم الحضاري الذي تضمنه القرآن وهيأه للبشرية ، في سبيل هدايتها ، وإرشادها لما يسعدها .

ومن الملامح البارزة في القرآن ، أنه لم يعوّل في مجال هدايته

على أمر مثل تعويله على القضايا العلمية الكبرى . ففي القرآن الكريم مئات الآيات الهادفة إلى هداية الإنسان إلى ربه الكريم ، ولكنها تتعرض إلى أخطر وأدق النواحي المتعلقة بالطبيعة ، أو الحيوان أو النبات في سياق التدليل على عظمة الله ووحدانيته ، ولزوم شكره وطاعته واتباع منهجه المنزل وشريعته الغرّاء .

فمن الآيات التي وردت في سبيل هداية الإنسان وتضمنت كبريات المسائل العلمية قوله تعالى : **﴿خلقَ السماوات بغير عمدٍ ترونها وألقى في الأرض رواسيَ أن تميدَ بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم . هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون في ضلال مبين﴾** [سورة لقمان ؛ الآيتان : ١٠ - ١١] .

وقوله سبحانه :

﴿لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمرَ ولا الليلُ سابق النهار وكلٌ في فلكٍ يسبحون﴾ [سورة يس ؛ الآية : ٤٠] .

﴿سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون﴾ [سورة يس ؛ الآية : ٣٦] .

﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ [سورة التين ؛ الآية : ٤] .

ومن القضايا النفسية والسلوكية التي أثارها القرآن قوله تعالى :

﴿كلا إن الإنسان ليطغى . أن رآه استغنى﴾ [سورة العلق ؛ الآيتان : ٦-٧] .

﴿إن الإنسان لربه لكنود . وإنه على ذلك لشهيد . وإنه لحب الخير لشديد﴾ [سورة العاديات ؛ الآيات : ٦ - ٨] .

هذه الآيات ، وكثير غيرها ، لفت القرآن الكريم ، نظر الإنسان إليها ، واستنطقها لتعلن عن أسرار خلق الله ، وعظيم صنعه ، وليقف

العقل الإنساني على دقة ووحدة نظام الكون ، الهادف إلى سعادة الإنسان .

وبالهزة العقلية التي أحدثها القرآن في مجال العقيدة والفكر ، وبالأسلوب البرهاني الاستدلالي ، أزال خرافات الإلحاد ، وصدأ الشرك والوثنية ، ولم يقف عند هذا الحد ، بل مد الإنسانية بينبوع لا ينضب من التشريعات العامة الشاملة ليهدي الإنسان إلى ما يفيده وينفعه ويصلحه ، ويجنبه الوقوع في المخاطر والمهالك ، وليقيم الإنسان حياته الفردية والاجتماعية على دعائم ثابتة راسخة ، تتفق وتتلائم مع سنن التطور والتغيرات في البيئة والظروف .

وأشاع القرآن في النفس الإنسانية روح الطمأنينة والاستقرار ، وأودع فيها شعاع التفاؤل والطموح ، وغذّاها بمشاعر الحب والوئام ، وروّضها على تحدّي العقبات وتجاوز الصعوبات ، وحررها من كل العبوديات المادية والشهوانية ، وكل أشكال السيطرة ، وأوثق صلتها برب العالمين . فحقق في هذا المجال ما لم تستطع تحقيق بعضه أية ثورة إصلاحية في العالم .

وحسبنا أن نشير هنا إلى ما يسود العالم اليوم من تخوف غير مشروع ونزعة تشاؤمية مريرة قائلة عن (القحط) في الغذاء الذي يظن أنه سيسود العالم قريباً نظراً لتزايد السكان غير المتناسب . والقرآن الكريم اجتثّ هذه النزعة من جذورها ولفت نظر الإنسان إلى كنوز الثروة التي منّ الله بها المرئية وغير المرئية مما يحصل معها الاستبشار ، والغبطة والفرح ، بتوازن الموارد والاستهلاك ، وكفاية الغذاء للبشرية مدى ملايين الدهور .

قال تعالى :

﴿ألم تروا إن الله سخّر لكم ما في السماوات وما في الأرض وأسبغ عليكم نِعَمه ظاهرة وباطنة ، ومن الناس مَن يجادل في الله بغير علم ولا

هدى ولا كتاب منير﴾ [سورة لقمان ؛ الآية : ٢٠] .

ولعل من النعم الباطنة ما يدأب العلماء اليوم على تحقيقه من استخدام الذرة لصنع أنواع الغذاء لمدة ملايين السنين وليس أمامهم من عقبة سوى طريقة التخلص من الفضلات المشعّة الناجمة عن تحطيم الذرة . . .

والقرآن الكريم - في هذا المجال - في الوقت الذي يقرر جهل من يدعي أنه بلغ سنام العلم وأدرك غايته . . . ﴿وما أوتيتم من العلم إلاّ قليلاً﴾ سورة الإسراء ؛ الآية : ٨٥]. ويقرر سذاجة التفكير التشاؤمي ﴿يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون﴾ [سورة الروم ؛ الآية : ٧] . فإن القرآن يؤكد كفاية نِعَم الله لخلقه ﴿وسخّر لكم الشمس والقمر دائبين وسخّر لكم الليل والنهار . وأتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدُّوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار﴾ [سورة إبراهيم : الآية : ٣٤] ، فتسخير الشمس للإنسان مصدر هائل من الطاقات التي يمكن استخدامها في مختلف المجالات كما أن نعم الله من الكثرة والخفاء بدرجة لا يقدر على إحصائها أحد ﴿أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون . وإن تعدُّوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم﴾ [سورة النحل ؛ الآيتان : ١٧ - ١٨] . وما الفقر إلاّ نتيجة سوء توزيع الثروة لا لعدم كفايتها .

فتطهير العقيدة ، وتنظيم التشريع ، وتزكية الطباع والأخلاق ، بأسلوب يطابق الفطرة ويتفق مع سنة الله في التطور ، ويطابق أحدث المكتشفات العلمية ، هذا الدور الجبار الذي مارسه القرآن الكريم ، نقل الأفراد والجماعات البشرية نقلة عملاقة ، تلاشت عندها مآسي الضلالات ، وتحطم جبروت السلاطين والطواغيت ، وزال كابوس الجبابرة ، ممن فرضوا على الناس ألوهيتهم الكاذبة ، وأشرقت الأرض بنور التوحيد والعلم والمعرفة التي شعت من آيات القرآن الكريم متخطية حدود الأجيال وأبعاد الزمن ، شاملة الإنسانية في كل أدوارها وأطوارها .

فهل يوجد معنى للهداية والرشاد ، والأخذ بيد البشرية ـ كل البشرية ـ إلى المستقبل الأفضل ، والعيش الأرغد ، أسمى مما أنجزه القرآن الكريم وحققه في مجالي النظريات والتطبيقات .

وهل أمكن للإنسان (العلماني) أن يحقق في أي مجال من مجالات الحياة العامة والفردية أدنى ما حققه الإنسان (القرآني) بأول دفقة شعاع أشرقت من القرآن ؟ .

وهل شيّدت على كوكبنا الأرضي حضارة تضاهي بل تداني بعض ما شيده إنسان القرآن ، من حضارة على أسس من الإخاء الإنساني ، والمساواة التامة ، والعدالة الشاملة ، والخير العميم والاستقرار الاجتماعي وسائر الحقوق التي تثور من أجلها شعوب العالم اليوم . . . ؟ .

المبحث الرابع
أثر القرآن في تحرير العقول

تمهيد : بدأ القرآن أول ما بدأ ، بتحرير العقول من قيود الجهل والأوهام والأساطير ، وباشر الرسول ﷺ أول ما باشر ، **تطهير العقول** من أدران الإلحاد والشرك والضلالات . فحيثما وجد العقل النظيف ، وجدت العقيدة السليمة ، ومتى ما تحرر العقل ، انطلق الفكر والسلوك من إسار الخرافات ، إلى رحاب العلم والمعرفة .

والقرآن الكريم ، في أول آياته الكريمة التي أشرقت على الإنسانية ، مَحَقَ العبودية للمخلوقات ، وقصرها وحصرها بالخالق الواحد الأحد ، وبدّد دياجير الجهل ، وأنار طريق العلم :

﴿إقرأ باسم ربك الذي خلق خَلَقَ الإنسان من عَلَق . . .﴾ [سورة العلق ؛ الآيتان : ١ ـ ٢] .

وهذا التحوّل الجذري الذي أحدثه القرآن ، وباشره الرسول

الأمين ﷺ أيقظ الإنسان ، وأفاض الحرية على العقل ، وأسبغ نعمة العلم عليه ، الأمر الذي استطاع معه القرآن أن يرسي دعائم مجتمع إنساني ، يتجاوز الحدود والعصبيات والفوارق ، وشيجته أخوة عقائدية وسمته تحرر مطلق من المادة ، وعبودية خالصة لله تعالى .

وفيما يلي نستعرض بإيجاز وضع العالم والجزيرة العربية قبل الإسلام ونبحث طبيعة التحرير القرآنية وأسسها في المطالب التالية :

المطلب الأوّل

الوضع العالمي قبل الإسلام

لكي نقف على الدور الذي أدّاه القرآن الكريم ، في تحرير العقل الإنساني ، بما قدّم من عقيدة وفكر ومفاهيم ، لا بد أن نستعرض بصورة عجلى ، ما كان عليه العالم ـ قبل شروق الإسلام ـ من أوضاع اجتماعية وعقائدية دينية .

لقد كانت الوثنية ـ سافرة وباطنة ـ ضاربة أطنابها في ربوع العالم أجمع . فعبادة الحيوانات والأحجار والكواكب والنيران ، قد ألقت بكلكلها على عقول الناس ، وظلّ العالم أسير هذه الهمجية والتدهور قروناً طويلة .

فكانت عبادة الحيوان ، إحدى خصائص الديانة المصرية ، حيث راح الناس يعبدون العجل المقدس[1] . وعبادة البقر والعصافير والقردة مشهورة في أنحاء مختلفة من الهند ـ حتى يومنا الحاضر ـ بالإضافة إلى عبادة الشمس ، وباعتبارها روحاً أو إلهاً وتقديم الضحايا والقرابين إليها[2] .

والتوتم[3] معبود العشائر والقبائل في أصقاع مختلفة من العالم ،

(١) الخشاب : أحمد الاجتماع الديني ص ٣٣٩ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٤٣ .

(٣) التوتم هو الرمز الحيواني أو النباتي أو الطبيعي الذي تتخذه العشائر البدائية لنفسها .

سواء كان دباً أو ذئباً أو ثعلباً أو طائراً مائياً[1] ، أو نحو ذلك .

وعبادة الأرواح الكامنة في الأرض ، باعتبارها علة للخصوبة والجدب ، الأمر الذي يستلزم استرضاؤها بتقديم ضحايا من الآدميين ، وإرواؤها بدمهم ، مما ساد في أمريكا والمكسيك وغينيا الجديدة وساحل الذهب وأغنوا وزولوا الافريقية[2] .

ولم تكن اليهودية والنصرانية بمنجى من هذه الانتكاسات ، بعد أن عبث فيهما يد التحريف والتأويل[3] واتخذ الناس رهبانهم وأحبارهم أرباباً من دون الله .

ولهذا لم يكن غريباً ـ في مثل الانحطاط ـ أن يلقى رجال الاختراعات أشد أنواع التعذيب والاضطهاد على يد رجال الكنيسة الأوروبية ، وأن تؤسس المحاكم الخاصة لمحاكمة رواد العلم والمعرفة ، وتعذيب العباقرة المجددين ، الأمر الذي أحدث رد فعل عنيف تجلى عن حملة كراهية وعداء لا لرجال الدين الكنسي في أوروبا فحسب بل للدين ـ كل دين سماوي ـ بعد أن توهم العلماء والناهضون أن الدين بذاته يأمر بالجهل وينهى عن العلم والتفكير وتطوير الحياة لصالح الإنسان . . .

ويكفي لمعرفة الوضع الاجتماعي العالمي أن نعلم أن بعض شرائع جنوب شرقي آسيا تقرر أن الوباء والموت والجحيم والسم والأفاعي والنار خير من المرأة !!! وفي الشريعة الهندوسية «أن على الزوجة أن تقتات بعد وفاة زوجها بالزهور والجذور والفواكه ليضمر

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٢٥ .
(٢) المصدر نفسه ص ٢٤٧ ـ ٢٤٨ .
(٣) كحالة : العالم الإسلامي ، العرب قبل الإسلام ص ١١٥ .

جسمها . . . »(1) ، وفي روما يقرر مجمعها أن المرأة رجس لا نَفْسَ لها ، ويحرم عليها الكلام ـ فجعلوا قفلاً تشريعياً على فمها ـ وحرموا عليها أكل اللحوم و . . . وفي انكلترا أصدر الملك هنري الثامن أمراً بتحريم مطالعة الكتاب المقدس على المرأة !! ولم يكن للمرأة حق المواطنة الطبيعي في انكلترا حتى عام ١٨٥٠ .

المطلب الثاني

الوضع العربي قبل الإسلام

كان العرب قبل الإسلام ، يرزحون تحت كابوس من الظلام العقائدي والسياسي والاجتماعي . فمن حيث العقيدة تجد طائفة أنكرت الخالق جل جلاله وهم الدهريون ، ومنهم من اعترف بالله وأنكر البعث والنشور ، ومنهم من جعل لله أنداداً ، كالأصنام والأوثان ، يعبدونها لتقربهم زلفى إلى الله .

فمن العرب من كان على الوثنية . وهي نفس ديانة السكان القدماء في الأقطار الأخرى ، وأهم آلهتهم القمر (سين) . وكانت عبادة هذا الإله شائعة في جميع أنحاء الجزيرة العربية تقريباً(2) .

والحجارة المؤلهة ـ عند العرب ـ نوعان : النوع الأول هو الحجارة المحمولة أو المنقولة ، والنوع الثاني هو الحجارة الثابتة التي لا تتزحزح من محالها(3) .

يقول أبو عثمان النهدي(4) :

كنا في الجاهلية نعبد حجراً ، ونحمله معنا . فإذا رأينا أحسن

---

(1) إحسان حقي : منو سمرتي ـ كتاب الهندوس المقدس ص ٣١٣ .

(2) سوسة : الدكتور أحمد ، العرب واليهود في التاريخ ص ١١٥ .

(3) علي إبراهيم حسن : التاريخ الإسلامي العام ص ١٢٧ .

(4) نهد : قبيلة من قضاعة .

منه ، ألقيناه وعبدنا الثاني ، وإذا سقط عن البعير قلنا : سقط إلهكم فالتمسوا حجراً [1] .

ويقول ابن هشام :

كانوا يعبدون ما استحسنوا من الحجارة [2] .

ويقول ابن الكلبي :

كان لأهل كل دار من مكة صنم في دارهم يعبدونه ، فإذا أراد أحدهم السفر : كان آخر ما يصنع في منزله أن يتمسح به ، وإذا قدم من سفره كان أول ما يصنع إذا دخل منزله أن يتمسح به أيضاً . وكان الرجل إذا سافر فنزل منزلاً ، أخذ أربعة أحجار ، فنظر إلى أحسنها فاتخذه رباً ، وجعل ثلاثة أثافيّ لقدره ، وإذا ارتحل تركه ، فإذا نزل منزلاً آخر فعل مثل ذلك [3] !! .

وقبيل الإسلام كانت قريش تطوف بالكعبة وتقول : واللات [4] والعزى [5] ومناة [6] الثالثة الأخرى ، فإنهن الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهن لترتجى . كما كانوا يقولون : بنات الله وهن يشفعن إليه [7]

---

(١) ابن الأثير : أسد الغابة في معرفة الصحابة ج ٣ / ٣٢٥ .

(٢) السيرة النبوية ج ١ / ٨٠ .

(٣) كتاب الأصنام ص ٣٣ .

(٤) اللات : صنم بالطائف ، وهي أحدث من مناة . وكانت صخرة مربعة ، وكان يهودي يلت عندها السويق .

(٥) العزى : أعظم الأصنام عند قريش ، وكانت بواد من نخلة الشامية يُقال له حراض إزاء الغمير .

(٦) مناة : أقدم الأصنام . على ساحل البحر ، بين المدينة ومكة ، وكانت لهذيل وخزاعة ، وكانت قريش وجميع العرب تعظمه . وفي سنة ثمان للهجرة ـ عام الفتح ـ أرسل رسول الله ﷺ الإمام علي بن أبي طالب ﵁ فهدمه ووجد فيه سيفاً يُقال إنه ذو الفقار (انظر التفاصيل : ابن الكلبي : الأصنام ص ١٤ ـ ١٥) .

(٧) الأصنام ص ١٩ .

فأنزل الله تعالى على رسوله الكريم ﷺ : ﴿أفرأيتم اللاتَ والعُزّى ومناةَ الثالثة الأخرى ألكم الذكرُ وله الأنثى تلك إذاً قسمة ضيزى إن هي إلاّ أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان . . .﴾ [سورة النجم ؛ الآيات : ١٩ ـ ٢٣] .

ويظهر أن العربي قد عبد الحيوان الحيّ نفسه ، ولم ينحت الأصنام على صور حيوان لأنه كان جاهلاً بصناعة الرسم والنحت[١] .

وتأثر العرب بالزرادشتية[٢] والزنادقة والمانوية[٣] . وكان تأثرهم بالمجاورات لأهل الملك ، والانتقال إلى البلدان ، والانتجاعات[٤] .

وكانت إلى جانب الوثنية في بلاد العرب نحل من ديانات أخرى منها الصابئة وقد انتشرت في بلاد اليمن وحرّان وأعالي العراق[٥] .

والصابئة معروفون بعبادة الكواكب والنجوم . وقال المجاهد والحسن إنهم من اليهود والمجوس لا دين لهم[٦] . وقال صاحب الميزان (تفسير الصابئة بالمذهب الممتزج من المجوسية واليهودية مع أشياء من الحرّانية هو الأوفق)[٧] والديانة الصابئية تغيرت على مرور الزمن حتى تفرّعت منها فروع متنوعة[٨] وينسب الصابئة دينهم إلى سيدنا نوح وإلى إبراهيم الخليل[٩] .

وكان في العرب يهود ونصارى . فأما من تهود منهم فاليمن بأسرها

---

(١) علي : إبراهيم حسن التاريخ الإسلامي العام ص ١٦٢ .
(٢) حسن : حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسي ج ٧٢/١ .
(٣) علي : إبراهيم حسن : التاريخ الإسلامي العام ص ١٦٢ .
(٤) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ج ٢٢٤/١ .
(٥) حسن : حسن إبراهيم : المصدر السابق ج ٧٢/١ .
(٦) الطبرسي : مجمع البيان ج ١٢٦/١ .
(٧) الطباطبائي : الميزان ج ٢٢٤/١ .
(٨) الحسني : عبد الرزاق . الصابئون ص ١٣ .
(٩) الجارم : محمد نعمان : أديان العرب في الجاهلية ج ١٥٨/١ .

كان (تبّع) حمل حبرين من أحبار اليهود إلى اليمن ، فأبطل الأوثان وتهوّد من باليمن وتهود قوم من الأوس والخزرج ، بعد خروجهم من اليمن ، لمجاورتهم خيبر وقريضة والنضير . . .

وأما من تنصّر من أحياء العرب ، فقوم من بني أسد بن عبد العزى . . ومن بني تميم[1] .

وكان في العرب من يؤمن بالله واليوم الآخر ، وينتظر رسولاً من الله تعالى بناء على ما ورد في التوراة والإنجيل . وتحدثنا الرواية أنه قبيل دعوة محمد ﷺ كان هناك قليلون يؤمنون بالتوحيد . . . فالعرب ـ والدين الإسلامي على الأبواب ـ كانوا يدينون بمعتقدات جاهلية أو باليهودية أو النصرانية أو التوحيد[2] . وكان أولاد معد على بقية من دين إسماعيل ﷺ وكانت ربيعة ومضر على بقية من دينه[3] .

وأما الوضع السياسي للجزيرة العربية ، فكان النفوذ الروماني من الشمال ، والفارسي من المشرق ، والحبشي من الجنوب ، يهدد الوجود العربي ، ويخضع العشائر والقبائل تحت كابوس عسفه ، ويلبسهم شيعاً متناحرين . ولم تكن للعرب دولة واحدة تجمع شتاتهم وتعز كلمتهم وتوحد شملهم ، بل كانوا موزعين تحت سيطرة هؤلاء وأولئك ، منقسمين على أنفسهم ديدنهم الفتك والقتال .

(فأيام العرب مملوءة بحروب وثارات ، نشأت في الأصل عن نزاع على الماشية أو المرعى أو عيون الماء)[4] . وبلغت روح الإنتقام درجة مروعة حتى إن النساء لم يرضهن سوى صبغ ملابسهن بدم القتيل وأكل

---

(١) اليعقوبي : المصدر السابق ج ١/ ٢٢٦ ـ ٢٢٧ .
(٢) موسكاتي : الحضارات السامية القديمة ص ٢٠٨ .
(٣) ابن الكلبي : كتاب الأصنام ص ١٣ .
(٤) موسكاتي : المصدر السابق ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥ .

قلبه وكبده[1] . . . وقد شهدت الفترة الأولى من معارك المسلمين مع الجاهليين صورة من هذه الحماقة والوحشية في أم معاوية بن أبي سفيان (هند بنت عتبة) حيث أخرجت كبد حمزة عم النبي ﷺ ولاكته بأنيابها حقداً على النبي ﷺ ودينه وثأراً للأصنام والأوثان المحطمة[2] !! .

وأما من الناحية الاجتماعية ، فكان الفقر غالباً ، والفاقة شاملة ، والأرملة ميراثاً ضمن تركة الزوج : فإما أن تفتدي ، وإما أن يتزوجها الوارث ، وإما أن يعضلها ويتعنت في تزويجها طلباً للمال ، وإما أن تموت فيرثها . قال تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كَرْهاً ، ولا تعضلوهُن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن . . .﴾ [سورة النساء ؛ الآية : ١٩] .

وعادة وأد البنات وهن على قيد الحياة عادة سارية ندد بها القرآن الكريم وحرمها بشدة ﴿وإذا بُشر أحدهم بالأنثى ظل وجهُه مسوداً وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بُشر به أيمسكه على هون أم يدسُّه في التراب ألا ساء ما يحكمون﴾ [سورة النحل ؛ الآية : ٥٩] . ﴿وإذا الموؤدة سُئلت بأي ذنب قُتلت﴾ [سورة التكوير ؛ الآيتان : ٨ - ٩] .

وكانت الخمرة شائعة والرقيق تجارة مألوفة ، والسلب والنهب شائعة ومكرمة من لا يتخلق بها سحقته أقدام الآخرين .

وهكذا يتبين أن الانحطاط العقائدي والسياسي والاجتماعي والاقتصادي قد أرخى سدوله على الجزيرة العربية وليس فيها أثارة علم أو حضارة أو مدنية حتى شع نور الإسلام . . .

---

(١) عمر كحالة : العالم الإسلامي ص ١١٥ .
(٢) راجع تفصيل ذلك : الواحدي : أسباب النزول ص ١٩٢ . وراجع سائر كتب التاريخ : معركة أحد .

المطلب الثالث
طبيعة التحرير القرآنية

أ ـ دور القــرآن :

إن الطبيعة القرآنية لتحرير العقول ، لا تكتفي بتغيرات ظاهرية في مناهج التفكير وأساليب العمل . وإنما تمتد إلى أعماق العقل والنفس ، وتحدث انقلاباً جذرياً في الأسس والقواعد ، التي تصدر عنها عقائد الناس وأفكارهم ومشاعرهم وعواطفهم ، فتغيير (جوّاني) الإنسان يكفل تغيير (برّانيّه) كما يكفل ديمومة واستمرار آثار التغيير . قال سبحانه : ﴿ . . . إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . . . ﴾ [سورة الرعد ؛ الآية : ١١] .

ولقد وجدنا ـ فيما سبق ـ عقائد العالم والعرب قبل الإسلام ، حيث كان العجل والثعلب والريح والشمس والنجوم والحجر والنار وغير ذلك أقدس مكانة وأعز منزلة من الإنسان ، وكان الإنسان العبد الذليل الضارع لهذه الأرباب .

وأطل الإسلام ، ودوّى صوت القرآن ، فجعل الإنسان أعز ما في ملكوت الله ، وكل ما في الكون من كائنات في السماء أو في الأرض مسخرة لخدمته :

﴿ولقد كرمنا بني آدم . . . ﴾ [سورة الإسراء ؛ الآية : ٧٠] .

﴿ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض . . . ﴾ [سورة لقمان ؛ الآية : ٢٠] فأعاد القرآن للإنسان الثقة بنفسه ، وعندئذ اهتز العقل الإنساني هزة تساقطت عندها جميع أوهام وخرافات السنين السحيقة وتهاوت كل الآلهة التي يخلقها الناس ويعكفون عليها ويخرّون لها ساجدين ، واستيقظت النفوس ، واشرأبت الأعناق تستشرف فجر الدين الجديد وتصيخ لنداء القرآن :

﴿وإلهكم إله واحد لا إله إلاّ هو الرّحمن الرّحيم﴾ [سورة البقرة ، الآية : ١٦٣] . فما كان من الوثنيين إلاّ أن قالوا :

﴿أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب﴾ [سورة ص ، الآية : ٥] واستجابت النفوس الطاهرة . . . ودخل الناس في دين الله أفواجاً وسارت جموع المسلمين يرددون في مسمع الدنيا : (لا إله إلاّ الله محمد رسول الله) .

وهكذا عاد الإنسان إنساناً بعد أن كان أذل من البهائم والأحجار ، وهكذا عاد المعبود هو الخالق البارىء المصوِّر بعد أن كان العجل والثعلب والتمر والحجر .

بل هكذا تغير وجه العالم ، وتبدلت مسيرة الإنسانية واهتدى الناس إلى الصراط المستقيم حيث تدارك الله بلطفه هذا الخلق ، فأنزل القرآن ، وراح رسوله الكريم ﷺ يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويهذب طباعهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، فأنقذ العالم من دمار ماحق ، وبدد عن وجه الدنيا اكفهرار ليل دامس ، وأرسى في متون الأرض من قواعد التحرير والهداية والرشاد ، ومعالم المعرفة والإصلاح ما لا تقوى عليه حملات الجاهليين ، ولا دعاوى المغمورين ، ولا مزاعم الحاقدين إلى يوم الدين .

ولم يقف دور القرآن في تحرير عقول الناس عند مستوى تقرير حاجات الناس العقيدية والتشريعية والخلقية ، بل وقام بدور التوفيق بين نوازع الروح وغرائز الجسد ، والتنسيق بين مصالح الفرد ومصالح الجماعة ، وأثبتت رسالته خلال التطبيق والتجربة الاجتماعية التي عاشتها تطابقاً فذاً مع فطرة الإنسان في كل ما جاءت به ، وجدارة فريدة في السيادة والهيمنة على الإنسان من داخله ، وتنظيماً عجيباً للفرد والأسرة والمجتمع : ﴿الر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد﴾ [سورة إبراهيم، الآية : ١] .

ب ـ أقوال علماء العالم(١) :

لقد صرّح علماء العالم بسمو مبادىء الإسلام وشمول قواعده ودوام صلاحه وأهمية القرآن الكريم ودوره في تقدم الإنسانية :

قال دفرجه في كتابه (العالم ، جزيرة العرب) :

(في القرآن أصول دينية وأخلاقية وفلسفية ، وقوانين سياسية وحربية ، وقانون مدني ينظم سير علاقات الناس بينهم ، في كل وجه من وجوه الحياة العظيمة) .

وقال وليم ميور (اعتقاد الإسلام) :

(إن القرآن ممتلىء بأدلة من الكائنات المحسوسة ، والدلائل العقلية على وجود الله وأنه الملك القدُّوس .. ويمثل حقيقة البعث ، بأمثال كونية صادقة وتشبيهات مدهشة) .

وقال إدوار جيبون :

(إن دين محمد خال من الشكوك والظنون . والقرآن أكبر دليل على وحدانية الله بعد أن نهى النبي عن عبادة الأصنام والكواكب ، وهذا الدين أكبر من أن تدرك أسراره العويصة عقولنا الحالية) .

وقال تولستوي في كتابه (حكم النبي محمد) :

(ومما لا ريب فيه ، أن النبيّ محمداً ﷺ من عظام الرجال المصلحين ، الذين خدموا الهيئة الاجتماعية ، خدمة جليلة ، ويكفيه فخراً أنه هدى أمة برمتها إلى نور الحق ، وجعلها تجنح للسكينة والسّلام ، وتفضل عيشة الزهد ، ومنعها من سفك الدماء وتقديم الضحايا البشرية ، وفتح لها طريق الرقي والمدنية ...) .

---

(١) انظر كحالة : عمر رضا ، العالم الإسلامي ج ١/ ١٩٨ وما بعدها ، مهندس زكريا هاشم زكريا ، فضل الحضارة الإسلامية والعربية على العالم ، ص ٢٢٥ وما بعدها .

وقال مسمر (دين الإسلام والعلم لرينان والرد عليه لمسمر) :

(إن إعلان الوحدانية ، في وقت ملّت فيه الأمم خرافات علم اللاهوت ، كان من أفضل الأشياء ، حتى إنه بمجرد ما نطق بها ـ كلمة التوحيد ـ (محمد) ﷺ اخترقت جميع معابد الأصنام وأنارت بذلك تلك الدنيا) .

وتحدث الكاتب الإنكليزي برناردشو عن الإسلام فقال :

إن أوروبا بدأت تحسُّ بحكمة (محمد) ﷺ وبدأت تعشق دينه . . . وسيكون دين (محمد) ﷺ هو النظام الذي يؤسس عليه دعائم السلام والسعادة . . . فقد نادى الإسلام بالحرية والإخاء والمساواة ، ورسم وسائل تحقيقها ، وأقام موازين الحق والعدل والإنصاف . .) .

وتحدث ماسنيون :

(يمتاز الإسلام بأنه : يمثل فكرة مساواة صحيحة . . . وللإسلام ماض بديع من تعاون الشعوب وتفاهمها ، وليس من مجتمع آخر له ما للإسلام ، ماض كله التوفيق في جمع كلمة مثل هذه الشعوب الكثيرة المتباينة ، على بساط المساواة في الحقوق) .

وقال جان مليا :

(الإسلام دين سماوي ، وهو دين حب وعاطفة وشرف ، وهو أكثر الأديان تساهلاً) .

وقال أدموند بورك :

(القانون المحمدي قانون ضابط للجميع ، من الملك إلى أهل رعاياه ، وهو قانون نسج بأحكم نظام حقوقي ، وأفضل قضاء علمي ، وأعظم تشريع عادل لم يسق قط للعالم إيجاد مثله) .

وتحدث المؤرخ الإنكليزي أرنولد توينبي عن عالمية الإسلام فقال :

(لم تكن رسالة الإسلام مقصورة على بلاد العرب ، بل إنّ للعالم أجمع نصيباً فيه ، ولما لم يكن هناك غير إله واحد ، كذلك لا يكون هناك غير دين واحد ، يدعى إليه الناس كافة .

وقال المفكر الكبير جومستاف لوبون :

(القرآن قانون ديني وسياسي واجتماعي ، وأحكامه نافذة منذ قرون كثيرة، والمسلمون أخوة لأنهم يعبدون إلهاً واحداً وشريعتهم واحدة) .

وتحدث جوته الإلماني عن القرآن فقال :

(إن هذا الكتاب سيحافظ على تأثيره إلى الأبد ، لأن تعاليمه عملية مطابقة للحياة الفكرية ، لقوم معتزين بتقاليدهم) .

ولو قدّر للبشرية أن لا تمنى بإقصاء القرآن من محل الصدارة في توجيه المجتمعات ، لما عدنا نشم رائحة البارود تتصاعد من كل مكان في العالم ، وغبار الذرة يملأ المحيطات والأجواء والقفار ، ويهدد بالدمار الماحق ، ولما أبصرنا مصارع الشعوب في كل حدب وصوب ، ولما سمعنا طبول الحرب ـ حرب الصواريخ ذات الرؤوس المتعددة الاتجاهات ـ تقرع أسماع الدنيا وتنذر بفناء الأقوياء والضعفاء على حد سواء .

ولو سنحت للبشرية فرصة الاهتداء بالقرآن ، والاعتصام بحبله ، ونبذ المناهج الجاهلية لشهدنا أحلام شعوب العالم وأهداف ثوار أمم الأرض ، ومقاصد المنظمات والمؤسسات الدولية دون ما يجسّد القرآن ويحققه ، في كل مشهد من مشاهد الحياة ، الفردية والجماعية ، حين تستظل بظله وتهتدي بهداه ، وتتبع منهجه وتطبق قواعده وأحكامه . . .

المطلب الرابع
أسس القرآن في التحرير

اعتمد القرآن الكريم لتحرير العقول أسساً منها التأكيد والتعويل على : العقل الإنساني ، وبشرية الرسول محمد ﷺ ، والأسلوب البرهاني في الإقناع .

أ ـ العقل :

أكد القرآن الكريم على المدركات العقلية ، ومنح العقل الدور الفيصل في التمييز ، وعاب الذين يغلقون عقولهم ، ويحاكون غيرهم محاكاة تقليدية ، ومدح الذين يستعملون عقولهم في إطار العقائد والسلوك وسائر التصرفات .

ولولا أن يكون القرآن الكريم أصيلاً في ممارسة عملية التحرير ، لما أعطى للعقل هذا الدور الخطير في القبول والرفض ، ولما أنحى بالتقريع والتوبيخ على الذين حجبوا عن أنفسهم نعمة العقل وراحوا يقلدون الماضي أو يخوضون مع الخائضين . . .

ففي القرآن الكريم عشرات الآيات تحثُّ الناس على التبصر والتفكير والتدبر باستعمال العقل كقوله تعالىٰ : ﴿**وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون**﴾ . و ﴿. . . **وما أنزلت التوراة والإنجيل إلاَّ من بعده أفلا تعقلون**﴾ و ﴿. . . **لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون**﴾ و ﴿. . . **وما عند الله خير وأبقى أفلا تعقلون**﴾ وسائر الآيات الكريمة .

وفي القرآن الكريم عشرات الآيات التي تمتدح ذوي العقول والمفكرين وتنعتهم بالنعوت الكريمة ، لاستعمالهم العقول . كقوله تعالى : ﴿. . . **إنما يتذكر أولوا الألباب**﴾ و ﴿**ذكرى لأولي الألباب**﴾ و ﴿**أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب**﴾ و ﴿. . . **إن في ذلك لآيات لأولي النهى**﴾ وهكذا .

وتطالعنا آية كريمة لا تجعل العقل سبيل سعادة وخير في الدنيا فحسب بل وتجعله يقرر مصير الإنسان في الآخرة . فإذا ما عطله الإنسان في الدنيا وأهمله وراح يتبع الأهواء والرغبات والشهوات فإن مصيره الخسران المبين والعذاب العظيم قال تعالى في كلام أهل النار : **﴿وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير﴾** [سورة الملك ؛ الآية : ١٠] .

ب ـ بشرية محمد (ص) :

لقد استطاع القرآن الكريم أن يزعزع جذور العقائد الفاسدة ، ويجتث منابت العادات الهمجية المنحطة ، وأن يرسي قواعد رسالة كاملة شاملة ، حوت من العقائد والتشريع والأخلاق ما يغني العالم بأسره من كل تشريع . بل وينفي الشرور والمفاسد عن وجه المعمورة ، فتعيش الإنسانية إنسانيتها بحق ، كاملة غير منقوصة .

وكان رسول الله ﷺ وهو يبلغ آيات القرآن الكريم يؤكد للملأ من حوله أنه (بشر) مثلهم وأنه لا حول له ولا قوة إلا ما شاء الله وأنه لا يعلم الغيب إلا بما يأذن به الله تعالى ، في عشرات الآيات ، كقوله تعالى : **﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ . . .﴾** [سورة الكهف ؛ الآية : ١١٠] . و**﴿قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلاّ ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء . . .﴾** [سورة الأعراف ؛ الآية : ١٨٨] . و**﴿قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني مَلَكٌ إن أتبع إلاّ ما يوحى إلي . . .﴾** [سورة الأنعام ؛ الآية : ٥٠] .

وكان رسول الله ﷺ يجلي عقول الناس ويصقل نفوسهم ويوجه أنظارهم إلى ملكوت السماوات والأرض ويوقفهم على ما في الكون من أسرار الخليقة ، وعجيب الصنع ، وعظمة النظام ، ويمدهم بينبوع تشريع ، ستظل كل الحضارات التالية مدينة إليه ، وهو في هذا الشموخ

العلمي والفكري ، يعكس أجلى صور الزهد والتواضع ، على صعيد سيرته وتعامله مع أهل العالم ، ومَن حوله . .

فكانت هذه السجايا الحميدة ، والتأكيد على كونه بشراً ، ونفي صفة الملائكة عنه مع عظمة ما جاء الناس به من رب العالمين ، من العوامل الرئيسية في التأثير المباشر والسريع على عقول الناس ، وتحريرهم من ربقة المادة والشهوات وتنشيط النوازع الإنسانية لديهم ، والرقي بهم في مدارج الكمال .

جـ ـ الأسلوب البرهاني :

ومن عجيب أمر القرآن الكريم أنه لا يدلي بأمر إلاّ ومعه حجته . فقد اتخذ الأسلوب البرهاني الإقناعي ، والعرض المشفوع بالدليل القاطع وسيلة في ما أداه من دور تغييري في مجالات الحياة . وأعجب من هذا أنه ـ وهو يحدث الانقلاب الجذري في الفكر والسلوك ـ يشجب الإيمان الأعمى ، ويأمر أن لا يقبل إنسان أمراً ما إلاّ بالدليل والبرهان الذي يوجد علماً وينفي كل شك أو ريبة لدى الإنسان . كقوله تعالى : **﴿ولا تقف ما ليس لك به علم . .﴾** و **﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلاّ من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾** [سورة البقرة ؛ الآية : ١١١] .

ويجعل القرآن الكريم من ميزات عظمة وقوة التوحيد قيامه على الدليل ، ومن سمات ضعف ووهن الشرك ابتناؤه على دعاوى فارغة وتصورات كاذبة : **﴿ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به ، فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون﴾** [سورة المؤمنون ؛ الآية : ١١٧] . وقوله : **﴿أمّن يبدؤ الخلق ثم يعيده ، ومن يرزقكم من السماء والأرض . أإله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾** [سورة النمل ، الآية : ٦٤] .

فاستعمال العقل لا الخرافات والأوهام والأساطير ، والتأكيد على

بشرية الرسول ﷺ دون الزعم بكونه ملكاً ، أو إحاطته بخزائن الله أو علمه بالغيب أو نحو ذلك ، واتخاذ الاستدلال والبرهنة دون التقليد الببغاوي ، والمحاكمات العجماوية ، تعدّ من عجائب القرآن ، إذ إن هدفه في تحرير عقول الناس وأصالته في دوره كان يحول دون أن يسلك سبيل سائر (الأطروحات) التي تجعل المغالطات والمواعيد الكاذبة والسبل الملتوية أساليب لها من أجل تحقيق غاياتها ومطامعها .

وبذلك يكون القرآن قد أحدث تغييراً جذرياً لا في أصول حياة الناس وركائز تفكيرهم فحسب ، بل وفي طرق التحولات الاجتماعية وأساليب النهضات الحضارية في العالم . حيث كان المعتاد أن مَن يحاول أمراً تشبث بكل الوسائل المؤدية إليه مهما كانت درجة مشروعيتها ولكن الإسلام يرتفع عن هذا المستوى ويؤكد أن الوسيلة جزء لا يتجزأ من الغاية (من أمر بمعروف فليكن أمره بمعروف) وقول الإمام علي ؑ لأهل العراق : (وإني لأعلم بما يحملكم على طاعتي . . .) ويقول مسلم بن عقيل لهاني بن عروة حين طلب منه الفتك بعبيد الله بن زياد (نحن أهل بيت نكره الغدر . . .) الخ .

وحيث (لا يعبد الله من حيث يعصى) فإن القرآن الكريم لم يعتمد في دوره الرسالي لتحرير عقول الناس إلّا على الأسس الوضاءة والأساليب المشرّفة ، لبناء عالم الإنسان الإنسان ، على أنقاض عالم الإنسان المنهار ، أو المرتد إلى عصور الجاهلية السحيقة .

وبفضل الأساليب والأسس المشروعة استطاع القرآن تحرير عقول الناس وفك عقالها ، وأستطاع أن ينتصر - في برهة من الزمن - على الوثنية والشرك بشتى صورها ، وعلى الديانات بمختلف مذاهبها ، وأن يحيل الركود الفكري ، والجمود العقلي ، إلى حركة تأملية كبرى ، تمخضت عن تولي زمام العالم في شتى الميادين ، وأصبحت أمة القرآن طليعة أمم الأرض قاطبة وأعزها مكانة وأقواها شكيمة وأوسعها علماً وأعلاها هداية ورشاداً .

المبحث الخامس
دعوة القرآن إلى التفكير

أولاً ـ التفكير في الخلق :

نهض القرآن بالدعوة إلى استعمال المشاهدة ، وتحكيم العقل معاً ، لتكوين العقيدة ، فدَعّمَ المدركات العقلية بالشواهد الحسية ، ودعا إلى استكشاف أسرار الخليقة ، ومعرفة سنن الإجتماع الإنساني في التطور ، وتدبر أحداث الكون ، وهو في كل ذلك يربط بين المشاهدة والمعطيات العقلية ، أو بين الإنسان وبصيرته .

فالمشاهدة أصل علمي وقرآني في آن واحد . ففي القرآن الكريم كثير من الآيات تأمر باستعمال الحواس لاستكناه الطبيعة والوقوف على قوانين الكون واستخدام الطاقات الهائلة فيه لصالح الإنسانية . والشواهد كثيرة منها : **﴿. . . ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار﴾** [سورة آل عمران ؛ الآية : ١٩١] . **﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت . وإلى السماء كيف رفعت . وإلى الجبال كيف نصبت . وإلى الأرض كيف سطحت فذكّر إنما أنت مذكّر﴾** [سورة الغاشية ؛ الآيات : ١٧ ـ ٢١] . **﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق . . .﴾** [سورة العنكبوت ؛ الآية : ٢٠] **﴿لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾** [سورة غافر ؛ الآية : ٥٧] .

ثانياً ـ التفكير في مبدأ الإنسان ومعاده :

ومن الشواهد القرآنية التي تجعل الإنسان يحس المعقول ويشهده قوله تعالى : **﴿والله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور﴾** [سورة فاطر ؛ الآية : ٩] . فالقرآن يشير إلى ظاهرة طبيعية محسوسة يشاهدها الإنسان ، وبالقياس

عليها يصور القرآن لنا أمراً معقولاً هو البعث يوم القيامة .

ونظيرها قوله تعالىٰ : ﴿يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب . . .﴾ [سورة الحج ؛ الآية : ٥] .

ويجري القرآن الكريم محاكمات عقلية لإثبات ما هو بصدد إثباته وعندها لا يملك العقل السليم إلاَّ الإيمان والتصديق قال تعالىٰ : ﴿وقالوا أإذا كنا عظاماً ورفاتاً أإنا لمبعوثون خلقاً جديداً . قل كونوا حجارة أو حديداً . أو خلقاً مما يكبر في صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة . .﴾ [سورة الإسراء ؛ الآيات : ٤٩ ـ ٥١] .

والقرآن يعرض بشكل مذهل : خلق الإنسان الأوّل ، ثم يبحث تطورات نموه ـ بيولوجياً ـ في بطن أمه بصورة غاية في الدقة ، ثم يستمر عرضه لمسيرة الإنسان في حياته وتكامله وشيخوخته وهرمه وموته وبعثه : قال سبحانه : ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة في قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين . ثم أنكم بعد ذلك لميتون . ثم إنكم يوم القيامة تبعثون﴾ [سورة المؤمنون؛ الآيات: ١٢ ـ ١٦] .

ولو أردنا أن نفصّل ما تضمنته هذه العبارات الكريمة من معان وما دلت عليه كلمة (سلالة) والنظريات الحديثة فيها ، وأدوار الجنين التي وقف عليها العلم اليوم لطال البحث وضاق المجال .

ثالثاً ـ التفكير في العلوم الكونية والإنسانية :

دعا القرآن بإلحاح إلى التأمل في كل العلوم ، ومراقبة أحداث الكون ، واستنطاق الظواهر الطبيعية ، للوقوف على عظمة الخالق ، وتسخير القوى المودعة في هذه الموجودات ، لخير وسعادة الإنسان ﴿هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه

تسيمون . ينبت لكم به الزرع والزيتون . والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون . وسخّر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون . وما ذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانه إن في ذلك لآية لقوم يذكرون . وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً ، وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾ [سورة النحل ؛ الآيات : ١٠ - ١٤] .

ودعا إلى التفكير في علم الأجنة وما يتصل به من علوم أخرى ، قال تعالىٰ : ﴿فلينظر الإنسان ممّ خُلق . خُلِق من ماء دافق . يخرج من بين الصلب والترائب﴾ [سورة الطارق ؛ الآيات : ٥ - ٧] .

ودعا إلى تأمل حالات النفس الإنسانية وما يؤثر فيها ، وما يطرأ عليها من تغيرات ونحو ذلك مما يتعلق بعلم النفس :

﴿وفي الأرض آيات للموقنين . وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾ [سورة الذاريات ؛ الآيتان : ٢٠ - ٢١] .

رابعاً - التفكير في أحداث التاريخ :

يعرض القرآن صور الحياة ، وأحداثها التي مرّت على الأمم السابقة ويستخلص منها العبر والحكم ، ويحذر الناس أن يقعوا فيما وقعت فيه تلك الأمم ، من طغيان مالي ، أو استبداد سياسي ، وتكذيب وجحود ، أو عصيان وفسوق ، فحاق بهم العذاب ، ولا محيص . قال سبحانه :

﴿وفرعون ذي الأوتاد . الذين طغوا في البلاد . فأكثروا فيها الفساد . فصب عليهم ربك سوط عذاب﴾ [سورة الفجر ؛ الآيات : ١٠ - ١٣] .

﴿إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم ، وآتيناه من الكنوز

ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوّة . . . ﴾ . ﴿فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين﴾ [سورة القصص ، الآيات : ٧٦ ـ ٨١] .

﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين﴾ [سورة النحل ، الآية : ٦٩] .

﴿. . . وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين﴾ [سورة الأعراف ، الآية : ٨٦] .

﴿قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ [سورة آل عمران ، الآية : ١٣٧] .

وفي دعوة القرآن إلى الاعتبار بالأمم السابقة ، والأحداث الماضية حكمة بالغة لأن الأمم اليوم حين تمتلك حصيلة ثروة من تجارب الأمم السابقة ، فإنها تكون أقدر على شق طريقها نحو الرقي والازدهار . وأمتنا الإسلامية بالإضافة إلى منهجها الإلهي ، وفر لها القرآن تجارب الماضين .

المبحث السادس
ملامح الامة الإسلامية

كانت الأمة قبل أن تحمل راية التوحيد ، وسناء القرآن ، لا تعبد آلهة متعددة فحسب بل إذا جاعت أكلت معبوداتها . . .

هذه الأمة ، استطاع القرآن الكريم أن يجعلها رائدة أمم الأرض قاطبة ، تحمل لواء التحرير والتوحيد للعالم منادية : ﴿وإلهكم إله واحد لا إله إلاّ هو الرّحمن الرّحيم﴾ [سورة البقرة ، الآية : ١٦٣] . وفيما يلي نبحث في عقيدة هذه الأمة ومعاملاتها وأخلاقها في المستوى النظري والتطبيقي . ونوازن بين ما كانت عليه وما آلت إليه بفضل القرآن العظيم :

أ ـ عقيدتها :

١ ـ في المستوى النظري :

كانت العرب تؤمن بعقائد شتى ، والوثنية أكثرها شيوعاً . والآية الآتية بما تعكس من صورة ، وتجسد من فكرة ، تبيّن ما كان عليه الناس قبل شروق فجر التوحيد :

﴿وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذّاب . أجعل الآلهة إلهاً واحداً إنّ هذا لشيءٌ عجاب﴾ [سورة ص ؛ الآيتان : ٤ ـ ٥] . فلم يكن لدى العربي أدنى قدرة على تحمل عقيدة إله واحد لكثرة ما شاع بينهم من الآلهة . حيث كانوا يتخذون في الأسفار من كل أحجار الأرض أرباباً يعبدونها .

هذه العقائد جاء عليها القرآن فاجتثها من الجذور وحطّم كل الأصنام والأوثان ونادى :

﴿قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفواً أحد﴾ [سورة الإخلاص : الآيات : ١ ـ ٤] .

بل جعل هذه الأمة ، التي لا تعبد إلاّ المحسوس من الجمادات والحيوانات والأجرام تؤمن بكل ما أوحى الله به من رسالات سابقة وما اختار واصطفى من رسل وأنبياء ، وتؤمن بالملائكة والمعاد :

﴿آمنَ الرسول بما أُنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرّق بين أحدٍ من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير﴾ [سورة البقرة ؛ الآية : ٢٨٥] .

٢ ـ وفي مستوى التطبيق :

تمكّنت عقيدة التوحيد من قلوب الأمة واستحالت وثنيتها إلى ثورة عارمة على كل ألوان الشرك ، وصمود ومجالدة إزاء المشركين : يمر

رسول الله ﷺ على (عمّار) وأبيه (ياسر) وأمه (سمية) وهم تحت سياط قريش وفوق صخور مكة اللاهبة يقاسون أفظع تعذيب وهم يحملقون في وجوه المشركين ويهزأون ببطشهم وينادون :

«الله واحد . . . أحدٌ . . . أحدٌ . . .» .

وتـزداد السياط ضـراوة تنهش ظهورهم ، وتتقد الصخور حـرارة تشوي بطونهم ، ويزدادون ثباتاً على العقيدة وشوقاً إلى الجنّة . . . ويمرُّ رسول الله ﷺ ولا يملك إلاّ أن يقول لهم :

«صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة» .

وتستشهد (سمية) أم عمّار تحت التعذيب فتكون أول شهيدة في سبيل الإسلام .

ب ـ معاملاتها :

١ ـ في المستوى النظري :

كانت العرب ـ كسائر الأمم ـ تتعاطى الربا أضعافاً مضاعفة وتأتي الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وتسفك الدماء المعصومة بغير حلها ، وتنهب الأموال ، وتسترق الناس ، وتستبيح الخمرة والرشوة ، و . . . الخ .

ودوّى صوت القرآن ، ورددت النفوس الطاهرة صداه واستجابت لندائه ، وإذا بتلك المفاسد تذهب جفاءً :

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة . . .﴾ [سورة آل عمران ؛ الآية : ١٣٠] . ﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون﴾ [سورة البقرة ؛ الآية : ١٨٨] .

وكان القتل لا يتناول المعتدي فحسب ، ولا يقف عند معركة

واحدة ، بل لا يحده حدّ ولا ينهيه أحد . فصارت الأمة التي هذا ديدنها مئات السنين أشدَّ الناس حرصاً على دم الإنسان ترى في الإنسان أثمن ما في الوجود ، وترى جريمة القتلِ العمد العدوان بمثابة إبادة جماعية للبشرية ﴿ . . . أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً . . . ﴾ [سورة المائدة ، الآية : ٣٢] .

٢ ـ وفي مستوى التطبيق :

فلا أدل على عمق التغيير النفسي والعملي للمحتوى الداخلي الذي حققه القرآن الكريم في المجتمع الذي شعّ فيه من الموقف الكريم الذي وقفه الأنصار من المهاجرين . هذا الموقف الجماعي في الأريحية والسخاء الذي كلل هجرة المسلمين من مكة إلى المدينة ، بغار نكران الذات ، إن هذا الموقف له أكثر من دلالة ، ففي الوقت الذي يفارق فيه المهاجرون أموالهم وأهليهم ، ويهاجرون هجرة النفس إلى الله ، وهجرة الجسد إلى موطن يجدون فيه الحماية والأمن ، نجد أن الأنصار وهم أهل بلد آخر ، ولكنهم ارتبطوا معهم برباط العقيدة ، فأثمرت هذه العقيدة هذا التآخي في الله ، والإسهام في المال . وكانوا من قبل أعداء فألف الإسلام بين قلوبهم وصاروا بنعمته إخواناً . وكانوا على شفا حفرة من النار فأصبحوا من أبرار الجنة وأخيارها .

جـ ـ أخلاقها :

١ ـ في المستوى النظري :

يمتاز الإسلام بالواقعية في كل ما جاء به : من عقائد وأحكام عملية ومثل وقيم خلقية . وهو يتفق مع الفطرة الإنسانية ، ويستجيب ـ بتحفظ عجيب ـ للغرائز ، وينسجم تماماً مع سنن النظام الكوني .

ولهذا نجد أن كل أمر نزل به القرآن قد تحقق أو هو قابل للتحقيق

والتطبيق ولم يأتِ القرآن بوسيلة أو غاية ، إلاّ وكان لها النصيب الأوفر من الواقعية والديمومة .

فلقد بدأ القرآن ينزل نجوماً ، وكان بهذا الأسلوب في النزول غاية في الحكمة والواقعية ، حيث كان الفساد ، من خمر وظلم وعدوان ورق وأنانية واحتقار للمرأة وإعظام للمال وازدراء للفقراء، وغيرها من الشرور المستطيرة في كل شعب الحياة ، فاستطاع أن يقتلع كل المفاسد الإجتماعية ، لا بإصدار أوامر أو قرارات فاشلة لا يكتب لها الإصدار إلاّ وتمنى بفشل في الالتزام والتطبيق - كما فعل إبراهيم لنكولن في محاولته الشهيرة الخائبة في تحرير العبيد ، أو كما حاولت أمريكا تحريم الخمور ففشلت - وإنما مهّد لغاياته العليا بتهيئة الجوانب النفسية والعوامل البيئية المناسبة ، لكي تخرج كل محاولاته التغيرية إلى النور ، ومعها كل أسباب النجاح والبقاء . . .

ولهذا نجد القرآن الكريم حين نهى عن الكبر **﴿ولا تمشِ في الأرض مرحاً﴾** وعقوق الوالدين **﴿ولا تقل لهما أف﴾** والبخل **﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك﴾** والإسراف **﴿ولا تبسطها كل البسط﴾** ونهى عن أن يعيب المسلم على أخيه المسلم **﴿ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب﴾** والغيبة **﴿ولا يغتب بعضكم بعضاً﴾** وسائر الأخلاق الذميمة مما كان سائداً معتاداً في المجتمع الجاهلي ، وحين أكد على صلة الرحم . . . **﴿واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام﴾** وأمر بالتعاون والإحسان والإنفاق على الأقرباء المحتاجين والجار وسائر الفقراء وأوصى بالصدق والعدل وقول الحق ومقاومة الطغيان والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومساعدة الضعيف وقضاء حوائج الناس ونحو ذلك من الصفات الجميلة والخلال الحميدة ، نقول حين باشر القرآن هذا النهي وهذا الأمر بل هذه الثورة الأخلاقية الشاملة ، كان يحقق أمثلة حية من روائع النماذج الخلقية ، متمثلة فيمن آمن به واتبع الرسول ﷺ .

فاسطاع القرآن بكل جدارة ، أن يستبدل المفاسد والشرور التي طبقت المجتمع الجاهلي ، بمكارم الأخلاق ، وأن يشيع فيه من الأعراف والقيم والمثل ، ما تتحرى البشرية اليوم عن آثارها ، وتلتمس عودتها وتنشد مصاديقها .

٢ ـ في مستوى التطبيق :

ولقد كانت الأنانية هي السائدة لدى الجاهليين «والأثرة هي الغالبة عليهم ، والتعصب هو الطاغي فيهم ، وإذا بالقرآن الكريم يحول هذه الهنات إلى نكران ذات ، وإيثار وأريحية ، لا يكاد المرء يتصوّرها ، أو يعقلها ، لولا أنها وقائع مادية ملموسة ، شهدتها الدنيا وأنارت صفحات مجيدة من تاريخ أمتنا الإسلامية .

. . . تجتمع قريش وتجمع على اغتيال رسول الله ﷺ في فراشه وهو نائم فيتقدم إليه الإمام علي ؑ قائلاً : يا رسول الله نفسي لنفسك الفداء . . . ويبيت في فراشه ـ وهو على علم بما دبرت قريش من مؤامرة ـ وتشاء إرادة الله أن ينجو النبي والوصي من كيد المشركين وتكون كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا ويهبط الأمين جبرائيل مرتلاً : **﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله . . .﴾** [سورة البقرة ، الآية : ٢٠٧] . **﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة . . .﴾** [سورة التوبة ، الآية : ١١١] .

. . . ويشب أوار الحرب ويشتد القتال ، ويسقط المجاهد في ساحة المعركة ، فيؤتى له بالماء ليشرب ، فيشير إلى جريح إلى جانبه : أن اسقوهُ ، فإنه سقط قبلي ، ويصل الساقي إليه ، فيشير إلى جريح ثالث آخر قائلاً : اسقوه فإنه سقط قبلي ، ويصل الساقي إلى الجريح الثالث فيجده قد استشهد ، ويسرع للثاني فيلقاه قد مات ، ويعود إلى الأول وإذا به قد فاضت روحه الزكية الأبية !!! هذا الشعور الإنساني يتجلى بفضل القرآن لا في حالة أمن ودعة وسلام حيث تسود

المجاملات بل في سوح القتال حيث كان المفروض أن يعبُّ الجريح الماء عبّاً ، لكن شيئاً من ذلك لم يقع لأن الجرحى أرخصوا الحياة واستعذبوا طعم الشهادة والنصر والجنة . . .

. . . ويؤتى بالمحارب المشرك لتُضرب عنقه ، فيقوم ولده المسلم منادياً : يا رسول الله ﷺ دعني أقتل أبي المشرك ، ولا تدع غيري يقتله ، خشية أن أرى قاتل أبي فتعود لي عصبية الجاهلية فأقتله ، فأكون قد قتلت مسلماً بدم كافر فأدخل النار !!!

. . . ويقف جعفر بن أبي طالب يردّ على رسولي قريش (عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة) بين يدي النجاشي ملك الحبشة قائلاً :

أيها الملك : كنا قوماً في جاهلية نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف ، فكنا على ذلك ، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا ، نعرف نسبه وصدقه ، وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحّده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم ، والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله لا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصّلاة والزكاة والصيام[1] . . .

﴿قل تعالوا أتلُ ما حرَّم ربكم عليكم : ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلاّ بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون . ولا تقربوا مال اليتيم إلاّ بالتي هي أحسن . . .﴾ [سورة الأنعام ، الآيتان : ١٥١ ـ ١٥٢] .

---

(١) محمد حسنين هيكل : حياة محمد ص ١٥٥ .

هذه أمة القرآن في عقيدتها ومعاملاتها وأخلاقها على الصعيدين النظري والتطبيقي فيما كانت عليه قبل الإسلام وما آلت إليه بعد بزوغ فجره ولعل سائلاً يسأل : لم لا تكون أمتنا اليوم كأمتنا بالأمس في وحدة كلمتها وقوّة سلطانها ورفعة مكانتها وسؤددها وعزها ؟ .

والجواب : إن القرآن خصوصاً والإسلام عموماً ، اليوم أقدر من أي يوم مضى على جمع شمل الإنسانية وبناء حضارة عالمية على أرسخ دعائم وأقوى أسس وأرفع مفاهيم ، لا سيما بعد أن اتجه الرأي العالمي نحو إيجاد وحدة تشريعية عالمية تعلو على سيادة دول العالم متمثلة في هيئة الأمم المتحدة وسائر المنظمات الدولية ، كما أيدت المكتشفات والمخترعات العلمية جميع ما جاء به القرآن من حقائق ، فأمتنا اليوم أكفأ منها في أي يوم مضى على قيادة ركب البشرية إلى ساحل السعادة والاستقرار والسلام .

ولكن لا بد من شرط يضمن نجاح أمتنا اليوم في سيرها كما ضمن لها النصر بالأمس : هو : العمل بالإسلام والتمسك بقيمه وأفكاره وأحكامه وأخلاقه كما تمسّك المسلمون الأوائل وعملوا فأحرزوا النصر الساحق في كل الميادين . فعن عثمان وابن مسعود ، وأبي : (أن رسول الله ﷺ كان يقرئهم العشر ، فلا يجاوزونها إلى عشر أخرى حتى يتعلموا ما فيها من ـ العمل ـ فيعلمهم القرآن والعمل جميعاً)(1) .

وحين تعي أمتنا وتدرك أن السر يكمن لا في مجرّد وجود القرآن بين أيدينا ولا في وجود الملايين من المسلمين ـ وهم اليوم غثاء كغثاء السيل ـ بل في تلاحم الوجودين معاً فتكون أمتنا حينذاك تعمل بما تؤمن به ، وعند ذاك : فسوف لا نجد أي لون من ألوان السيطرة الأجنبية في أي جزء من بلاد المسلمين ، وستكون الأمة أعز أمم الأرض **﴿أفلا يتدبرون القرآن أ على قلوب أقفالها﴾** [سورة محمد ؛ الآية : ٢٤] .

---

(1) تفسير القرطبي ج ١/ ٣٩ ، السيد الخوئي : تفسير البيان ص ٣٨ ، الطبرسي : التفسير ج ١/ ٨٠ .

الفصل الثالث

تنزيل القرآن الكريم

- نزول القرآن وتنزيله .
- كيفيات الوحي .
- أول ما نزل من القرآن وآخر ما نزل .
- التدرُّج في تنزيل القرآن .
- أسباب النزول .

المبحث الأوّل
نزول القرآن وتنزيله

تنزلات القرآن : بعض آيات القرآن الكريم قررت نزول القرآن في شهر رمضان :

﴿شهر رمضان الذي أُنزل فيه القرآن هدىً للناس . . .﴾ [سورة البقرة ؛ الآية : ١٨٥] .

﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾ [سورة القدر ؛ الآية : ١] .

وبعضها قررت تنزيله منجماً (خلال ما يقرب من ثلاث وعشرين سنة) :

﴿وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزّلناه تنزيلاً﴾ [سورة الإسراء ؛ الآية : ١٠٦] . في حين أنا نعلم أن الرسول الأمين ﷺ بعث بالرسالة في السابع والعشرين من شهر رجب ـ على أقوى الروايات ـ وإن أول ما نزل من القرآن هو ما صاحب البعثة الشريفة ، وهو قوله تعالىٰ : ﴿بسم الله الرّحمٰن الرّحيم إقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . . .﴾ [سورة العلق ؛ الآيتان : ١ ـ ٢] . وبعدها نزلت سورة المدثر .

ومنها يتبيّن : أن القرآن أُنزل في ليلة القدر ، وتمّ تنزيله طيلة

البعثة النبوية ، وإن أول ما نزل من القرآن هو في شهر رجب ، فكيف يمكن التوفيق بين ما يبدو من تعارض ؟ .

لا بدّ من التفريق بين معنى الإنزال والتنزيل . والأصل في (النزول) هو الورود على المحل من علو ، والعلو كما يكون مكانياً : فيقال علا الطائر إذا ارتفع عن مستوى الأرض ، فقد يكون شأنياً : فيقال علا مستوى الطلبة ـ مثلاً ـ حين تزداد معارفهم ويرتفع مستوى معلوماتهم .

فللإشارة إلى أن رسول الله ﷺ ، تلقى القرآن الكريم من جهة عليا هي الله تعالىٰ جاء التعبير عن وحيه بالنزول .

على أن هنا فرقاً بين (الإنزال) و (التنزيل) رغم دلالتيهما على الورود التدريجي .

وحين يتضح معنى كل من الإنزال والتنزيل فلا يبقى تعارض ، ويكون معنى قوله تعالىٰ : ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾ وقوله تعالىٰ : ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن﴾ في رأي عدد من العلماء ، هو النزول الدفعي للقرآن الكريم ، أو الإجمالي ، بمعنى (أنه نزل إلى سماء الدنيا ليلة القدر جملة واحدة ثم نزل بعدها منجماً) قال الزركشي : وهذا القول أشهر وأصح ، وإليه ذهب الأكثرون[1] .

وقال القسطلاني (كما أنه كان في نزوله مع أفضل الملائكة في ليلة مباركة إلى سماء الدنيا جملة واحدة في بيت العزة خيرات متزايدة)[2] .

ويبدو أن الهدف من إنزال القرآن دفعة واحدة ، للمرة الأولى ، هو تنوير النبي ﷺ بالمعارف الإلهية الكبرى ، وأسرار الكون

(١) البرهان ج ١/٢٢٨ .
(٢) لطائف الإشارات ج ١/٢١ .

العظيمة . ليمتلىء قلبه ﷺ بالعلوم القرآنية ، والحقائق الكونية الحميمة ، قال الزنجاني : (على أنه يمكن أن نقول بأن روح القرآن ، وهي أغراضه الكلية التي يرمي إليها تجلت لقلبه الشريف ، في تلك الليلة ﴿نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين﴾ [سورة الشعراء ؛ الآية : ١٩٤]) .

فيكون معنى قوله تعالى : ﴿إنا نحن نزّلنا عليك القرآن تنزيلاً﴾ [سورة الإنسان ؛ الآية : ٢٣] . وقوله سبحانه : ﴿وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزّلناه تنزيلاً﴾ [سورة الإسراء ؛ الآية : ١٠٦] . ونظائرها من الآيات يفيد (التنزيل) لا (الإنزال) ، وهو تنزيل القرآن منجماً وبصورة تدريجية . قال ابن عباس : (أُنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا في ليلة القدر ثم نزل بعد ذلك في عشرين سنة[1] ، وعنه أيضاً أنه قال: في ﴿الذي أُنزل فيه القرآن﴾ نزّل جبرائيل بالقرآن جملة إلى السماء الدنيا . . . ثم نزل به بعد ذلك على محمد ﷺ ، يوماً بيوم ، آية وآيتين وثلاثاً ، وسورة . . .)[2] .

ولعل تنزيل القرآن تمّ لعلل منها : تربية الأمة وترويضها وهدايتها وتمكينها من التطبيق والالتزام بالأحكام وما إليه مما سنذكره فيما بعد إن شاء الله تعالى .

ويتبيّن أن القرآن الكريم قد أُنزل دفعة إجمالية على الرسول ﷺ أو إلى السماء الدنيا . ثم تدرج نزوله طيلة حياته بعد البعثة .

ومن هذا البيان نفهم قوله تعالى : ﴿الر كتاب أُحكمت آياته ثم فصّلت من لدن حكيم خبير﴾ [سورة هود ؛ الآية : ١] . فإنها تشير إلى القرآن حالة كونه محكماً وقد أنزله الله تعالى على الرسول ﷺ دفعة

(١) ابن كثير : فضائل القرآن ص ٢ .

(٢) تنوير المقباس : تفسير ابن عباس ، مطبوع مع الدر المنثور للسيوطي ج ١/ ٨٦ .

واحدة ثم فُصّل تفصيلاً حين تنزّل عليه آيات متفرقات خلال مدة الدعوة النبوية .

ومنه يظهر أن الرسول ﷺ حين تنزل عليه الآيات والسور كان على علم سابق بمحكم القرآن ، لنزوله عليه جملة ودفعة واحدة . وهذا المعنى هو ما يلوح من قوله تعالى : **﴿ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه وقل ربِّ زدني علماً﴾** [سورة طه ، الآية : ١١٤] . فإنها وأمثالها من الآيات (ظاهرة في أن الرسول ﷺ كان له علم بما سينزل عليه فنهي عن الاستعجال بالقراءة قبل قضاء الوحي)(١) .

ومما يؤيد ما ذهبنا إليه ، من بيان تنزيلات القرآن ، ما ورد عن ابن عباس أنه سأله ابن عطية الأسود فقال : وقع في قلبي الشك ، قوله تعالى : **﴿شهر رمضان الذي أُنزل فيه القرآن﴾** . وقوله تعالى : **﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾** . وهذا نزل في شوال وفي ذي القعدة وفي ذي الحجة ومحرم وصفر وربيع !! فقال ابن عباس : إنه أُنزل في رمضان ليلة القدر جملة واحدة ثم أنزل على مواقع النجوم (٢) .

المبحث الثاني
كيفيات الوحي

نزل القرآن الكريم على الرسول الأمين ﷺ كما نزلت الرسالات السابقة على الأنبياء : وحياً .

والوحي لغة : الإعلام الخفي السريع .

واصطلاحاً : الطريقة الخاصة التي يتصل بها الله تعالى برسله

---

(١) الطباطبائي : تفسير الميزان ج ٢/ ١٢ وما بعدها .

(٢) السيوطي : معترك الأقران في إعجاز القرآن ج ٢/ ٢٠٢ .

وورد أيضاً في (النظم الإسلامية) : (لقد نزل وحي القرآن إلى السماء السفلى ومن ثم نقل إلى الرسول بحسب الوقائع منجماً) . . . غود فروا ، ص ٧٢ .

وأنبيائه لإعلامهم ألوان الهداية والعلم . وإنما جاء تعبير الوحي عن هذه الطريقة باعتبارها خفية عن الآخرين ولذا عبر الله تعالىٰ عن اتصاله برسوله الكريم بالوحي ، قال سبحانه : ﴿**إنّا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده . . .**﴾ [سورة النساء ؛ الآية : ١٦٣] .

ولقد وردت كلمة الوحي في القرآن وأُريد بها معان كثيرة ، لسنا بصدد استقصائها ، والذي بصدده هو ورودها بمعنى طريقة اتصال الله تعالىٰ بمن يصطفي من الناس .

ولهذا المعنى للوحي ثلاثة صور :

الأولىٰ : إلقاء المعنى في قلب النبي ﷺ ، أو النفث في روعه ، بحيث يحسُّ بأنه تلقّاه عن الله تعالىٰ . كما قال ﷺ : (إن روح القدس نفث في روعي . . .) .

الثانية : تكليم الله النبي من وراء حجاب ، كما نادى الله موسى من وراء الشجرة فسمع نداءه ﴿. . . **وكلم الله موسى تكليماً**﴾ [سورة النساء ؛ الآية : ١٦٤] .

الثالثة : أن يلقي ملك الوحي المرسل من قبل الله تعالىٰ إلى أحد أنبيائه ، ما كلّف بإلقائه إليه ، سواء أكان هذا الملك على هيأته الملكية ، أم على هيأة رجل : (كما في الصحيح : وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول)(١) .

ولقد حصرت الآية التالية هذه الصور الثلاث بقوله تعالىٰ :

﴿**وما كان لبشر أن يكلمه الله إلاّ وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء إنه عليٌّ حكيم**﴾ [سورة الشورىٰ ؛ الآية : ٥١] .

كما تدل الروايات الواردة أن الرسول ﷺ تلقى الرسالة الغرّاء

---

(١) السيوطي : معترك الأقران ج ٢/٢١٥ ، الإتقان ج ١/٤٤ .

وآيـات وسور القـرآن الكريم وحيـاً عن طريق الملك جبـرائيل أحيـانـاً ، وأحياناً كثيـرة أخرى بمخـاطبة الله تعـالى له مبـاشرة . ففي الحـديث أن الإمـام جعفـر الصّـادق ـعه سئـل عن الغشيـة التي كـانت تـأخـذ النبي ـصه أكانت عند هبوط الأمين جبرائيل فقال : لا وإنما ذلك عند مخاطبة الله تعالى إياه بغير واسطة .

المبحث الثالث

أوّل ما نزل من القرآن وآخره

باستثناء المنزول الإجمالي للقرآن الكريم ، وسـواء قلنا بنزوله على رسـول الله ـصه محكماً إجمالاً ، أو نزولـه إلى السـماء الدنيـا ، فـإن تنزيل القرآن بدأ بسـورة العلق في مكة . فعن أبي عبـد الله ـعه (1) قال أول مـا نزل على رسـول الله ـصه : ﴿بسم الله الـرّحمن الـرّحيم إقـرأ باسم ربك الذي خلق . . .﴾ .

وقـال الزنجـاني(2) : الصحيح أن أول مـا نـزل من القـرآن قـولـه تعالى : ﴿إقرأ باسم ربك الذي خلق . . .﴾ .

وآخـر ما نـزل من السور ﴿إذا جـاء نصر الله والفتـح﴾(3) . وقـال اليعقـوبي : «وقيل آخر ما نـزل من الآيـات ﴿اليـوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسـلام دينـاً﴾ وهي الـروايـة الصحيحة الثابتة الصريحة . وكان نـزولها يـوم النص على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلوات الله عليه بغدير خُم»(4) .

وقيل(5) آخر ما نزل قوله تعالى : ﴿واتقوا يـوماً تـرجعون فيـه إلى

(1) انظر مجلة رسالة الإسلام، بغداد ٩ و ١٠ السنة الثانية ص ٢٩ .

(2) الزنجاني : تاريخ القرآن ص ٣٠

(3) الزركشي : البرهان ج ١/ ٢١١ .

(4) تاريخ اليعقوبي : ج ٢/ ٣٥ .

(5) الطبرسي : مجمع البيان ج ٢/ ٣٩٤ ، النيسابوري : أسباب النزول ص ٩ .

الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾ [سورة البقرة ، الآية : ٢٨١] . قال الماوردي[١] هذه الآية نزلت يوم النحر في حجة الوداع بمنى . وقيل آخر آية نزلت آية تحريم الربا[٢] .

هذا ومن المؤكد ، أن اختلاف الروايات في آخر ما نزل من آيات القرآن ، سببه هو غلبة ظن الرواة ، واجتهاداتهم ، فكل منهم يروي آخر ما سمع من رسول الله ﷺ ، قبيل مرضه ، ثم فارقه . كما يحتمل أن تنزل الآية فيتلوها الرسول مع ما بعدها مما سبق أن نزل ، لتكتب معاً فيظن السامع أن ما يتلوه الرسول هو آخر ما نزل .

وكانت الآيات تنزل طيلة الحياة النبوية بعد البعثة ، لا على تسلسلها الوارد في المصحف المدون ، فلربما نزلت آية أو بضعة آيات من سورة ، ثم نزلت آيات أخر من سورة أخرى ، وكان رسول الله ﷺ بتعليم من الله تعالى يلحق الآيات بسورها ، فيقول :

(الحقوا الآية كذا بالسورة كذا . . .) قال ابن عباس : كان جبرائيل إذا نزل على النبي بالوحي يقول له ضع هذه الآية في سورة كذا في موضع كذا [٣] .

ودلّ استقراء الأحاديث ، أن أكثر القرآن نزل مفرّقاً[٤] وأن الملك الأمين كان يقرىء رسول الله ﷺ ما نزل من القرآن الكريم كل عام ، وأن جبرائيل عرض القرآن على رسول الله ﷺ مرتين في العام الأخير من حياته الكريمة[٥] .

---

(١) الزركشي : البرهان ج ١/١٨٧ .
(٢) المصدر نفسه ج ١/٢١٠ .
(٣) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ج ٢/٣٦ .
(٤) الزنجاني : تاريخ القرآن ص ٣٢ .
(٥) ابن كثير : فضائل القرآن ص ٣ .

المبحث الرابع
التدرّج في تنزيل القرآن الكريم

تمّ تنزيل القرآن الكريم وفق منهج الإسلام في تغيير المجتمع البشري ، وطبقاً لفطرة الإنسان . وإن هذا التوافق بين تنزيل القرآن منجماً من جهة ، وبين طريقة الإسلام التدرجية في تغيير المجتمعات من جهة ثانية ، وبين سنة الله تعالىٰ في تغيير المجتمعات التدريجي ، لهو آية من آيات وحدة مصدر الكون والحياة والإنسان ، كما فيه دلالة قطعية على أن مصدر القرآن هو خالق الإنسان ، وإلاّ كيف حدث هذا التوافق ، وتمّ نقل المجتمع البشري من حضيض ما آل إليه أمره إلى المستوى الإنساني اللائق الذي شهده العالم في ظل سيادة الإسلام العظيم . . .

لقد كان لتدرُّج تنزيل القرآن أثر بالغ في نشر الدعوة الإسلامية وسنبحثه في المطلب الأول ، كما أن هذا التدرج في التنزيل تمّ لحكم تخص القرآن والرسول والمكلفين من الناس وسنبحثها في المطلب الثاني .

المطلب الأوّل
أثر تدرُّج تنزيل القرآن
في نشر الدعوة الإسلامية

إن التغييرات الاجتماعية ليست عملية (ميكانيكية) بالنسبة للفرد والمجتمع بل هي حركة (ديناميكية) يتغير بموجبها المحتوى الداخلي للإنسان ، فتتغير بذلك المظاهر العامة لحياة المجتمع . لذلك فإن أهم شرط من شروط نجاح أية فكرة تغييرية ، أن تنفذ إلى فطرة الإنسان ، وأن تكون متساوية معها ، غير متنافرة مع متطلباتها ، وحاجاتها الضرورية ، وإلاّ فنصيبها الفشل العاجل أو الآجل .

ولقد عشنا ، وسمعنا كثيراً من (الأطروحات) التغييرية التي تطرح في الساحة الإنسانية أملاً في أن يؤمن بها الفرد ، وتسود الجماعة ، ولكن سرعان ما تغدو فقاعة صابون تنجاب بأول هزة ، أو أن تبقى نظريات مجردة تحتجنها بطون الكتب . . .

ومن الجلي أن (الأطروحة) الإسلامية مدهشة للغاية ، من حيث ميزاتها الذاتية ، وآثارها التطبيقية . فإنها في عمقها التشريعي وشمولها لكل ألوان النشاط الإنساني ، الفردي والجمعي ، وعلى كل صعيد من جهة ، وسرعتها الخارقة التي استطاعت خلالها أن تجسّد عقائدها وتشريعاتها ، وتمثل قيمها ومثلها، وتحقيق أهدافها وأغراضها ، من جهة أخرى ، قد تميزت بميزات أفردتها عن سواها ، وسجلت في هذا المجال نصراً لم تشهد مثيله الإنسانية . . .

ولم تكن (الطريقة) الفريدة التي مارستها الرسالة الإسلامية في تغيير المجتمع تشوبها شائبة من شوائب (العفوية) أو (الارتجال) أو (الاعتباط) ، وإنما كانت مقدرة أحسن تقدير ، ومرسومة من قبل العليم الخبير ، ولهذا أثمرت للبشرية أسمى حضارات كوكبنا الأرضي .

ولو تدبرنا طريقة الدعوة الإسلامية لوجدناها أخذت بالتدرُّج في ثلاث مجالات :

الأول ـ التدرج في موضوع الرسالة :

حيث بدأ الإسلام بتغيير عقائد الناس وأفكارهم أولاً ، ثم راح يضع لهم القوانين والتعاليم ، التي تنظم الفرد والمجتمع ثانياً ، وذلك لأن الإنسان يسهل عليه أن يغير فكرة سبق أن آمن بها ، وأن يقتنع بفكرة جديدة قام الدليل على رجحانها ، في حين يعسر عليه ويشق أن يغير تعاملاً سلوكياً سار عليه واعتاده . وهذه (القضية) واضحة من تدبر طبيعة الآيات التي نزلت في مكة فإنها : عقائدية بصورة عامة ، أما الأيات التي نزلت بعد الهجرة فإنها : تشريعية عملية بصورة غالبة .

الثاني ـ التدرج في نشر الرسالة :

حيث باشر الرسول ﷺ رسالته الكريمة بدعوته عشيرته الأقربين ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ ثم اتسعت الدعوة فبلّغها للناس من حوله ﴿فاصدع بما تؤمر . . .﴾ ثم راح يخاطب الملوك والرؤساء في العالم[1] يعرض عليهم الإسلام باعتباره رسول الله إلى الناس جميعاً .

ومن الجدير بالذكر والتأكيد : أن طبيعة رسالة الإسلام كانت منذ البداية وبالأصل (للناس جميعاً) حتى يوم القيامة ، ولكن التدرج وقع في مباشرة الرسالة ، كطريقة طبيعية ومضمونة النجاح . وليس الأمر كما يدعي بعض المستشرقين ، من افتراءاتهم ، يرمون بها رسول الله ﷺ من أنه لم يكن يفكر أول الأمر بالناس وبالدولة ، وإنما كان قصده أهله وعشيرته ، وحين اتسقت له الأمور ، وسّع رسالته ونشر دعوته وأقام دولته . . . فإن هذه الفِرية مردودة من أساسها وواضحة البطلان بنصوص القرآن الكريم .

الثالث ـ التدرّج في الأساليب :

حيث بدأ رسول الله الدعوة : بالقول اللين والإرشاد والموعظة الحسنة . ثم ثنى بالمواقف السلبية والمقاطعات السلمية ، والنهي عن الركون إلى الأعداء ، أو موالاة الجاهلين ، وأعداء الإسلام . ثم أردف ذلك بمقاومة المعتدين ، وجهاد من يقف حائلاً دون حرية الرسالة الغراء في دعوة الناس إليها . وهذا التدرج ظاهر من آيات التصبر والتسلية التي كانت تنزل على الرسول ﷺ لتسليته عما يعاني من اضطهاد قريش . ثم أذن الله تعالى بقتال من يقاتل المسلمين فمارس رسول الله ﷺ الدفاع الشرعي لحماية المسلمين من العدوان وإتاحة المجال لممارسة

---

(١) راجع كتابنا التغير : فصل التنظيم الدولي ، ورسائل النبي ﷺ إلى الملوك والرؤساء .

التبشير بالإسلام .

لقد كان لهذا التدرج في مجالاته الثلاث أبلغ الأثر في شمول الإسلام للعالم ، وفتحه للقلوب قبل الأقطار ، ودون أية مقاومة شعبية تذكر ، في أكثر البلدان التي حررها الإسلام .

وإن الطريقة التدرجية التي مارس الإسلام بموجبها دوره في الهداية والتنظيم الواسع الشامل ، ليجسد حقيقة ناصعة ، هي أن الإسلام التشريع الأصلح والأمثل للإنسان باعتباره (دين الفطرة) : ﴿**فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون**﴾ [سورة الروم ، الآية : ٣٠] .

وإن هذه الطريقة كانت نتيجة حتمية لنزول القرآن منجماً . إذ إن من الواضح لو نزل جملة ، لوجب تكليف الناس به دفعة واحدة . ولكان الأمر على غير ما حدث . ولكن حكمة الباري عزّ وجلّ ولطفه ورحمته بالناس ، كل ذلك يسّر على الناس الأمر وضمن للرسالة النجاح والانتشار السريع .

المطلب الثاني
حِكَمُ تدرُّج تنزيل القرآن

على ضوء ما سبق بيانه ، نلمس أن التدرج في التنزيل جاء منسجماً مع طبائع المجتمع ، ومقرراً أسلوب الإسلام في العمل الاجتماعي ، لا سيما وأن القرآن يمثل المصدر الأول للتشريع الإسلامي .

ولم يكن هذا التدرج إلاّ لحكم إلهية بالغة ، اقتضتها مشيئة الله تعالىٰ وأحاط بها علمه الذي أحاط بكل شيء . ووضع لكل شيء قدراً . ونحن وإن كنا نجهل تلك الحكم بحقائقها ، غير أنا حين نذكر

بعضها فإنما نذكر ما وقفت عليه عقولنا وأدركته أفكارنا ، ودون أن ندعي أن ما ندركه هو الحقائق الشرعية الثابته القطعية بل هي حِكم راجحة ظاهرة .

ويمكن تصنيف هذه الحِكم إلى ثلاثة أصناف : حكم تخص الرسول الكريم ﷺ ، وأخرى تخص القرآن ، وثالثة تخص الناس :

أولاً ـ حكم تخص الرسول (ص) :

١ ـ إظهار عظمة الرسول ﷺ :

إن نزول القرآن جملة في شهر رمضان في ليلة القدر ، وتردد الوحي على رسول الله ﷺ من لدن البعثة المباركة حتى وفاته تفصح عن عظيم مكانته عند الله تعالىٰ ، وسمو منزلته ، وجليل رعاية الله تعالىٰ له وعنايته به . لأن الحبيب يكثر من ملاقاة محبه ويزيد من تردده عليه .

٢ ـ تثبيت فؤاد الرسول ﷺ :

إن الرسول ﷺ بَشر . وقد أُنيطت به مهمة تحويل مجرى حياة البشرية ، تحويلاً يستمر إلى يوم القيامة ، وإرساء قواعد حضارة تبقى صالحة كرّ الدهور ، وحمل رسالة كتب الله تعالىٰ على نفسه أن يظهرها ، وينصرها على الدين كله .

ومع عظمة المسؤولية الملقاة على رسول الله ﷺ ، نجده عديم المال فاقد الأنصار ، لا يملك من الوسائل التغييرية ، إلّا أصالة الرسالة التي يحملها ، وقوّة الإيمان الذي ينطلق منه ، فليس معه أحد إلّا الصفوة من أهله وعشيرته ، أما سائر أفراد عشيرته وجميع الناس حوله ، فيقفون وجهاً لوجه أمام دعوته ، بكل ضراوة ، وبشراسة لا توصف .

ولا غرو أن مثل هذه المهمة صعب جداً ، بل هو فوق طاقة البشر . فكان لا بد من إمداد غيبي مستمر ، حتى يكمل الدين ، وتتم النعمة ، ويسود الإسلام . وكان هذا الإمداد إسعافاً ونجدة إلٓهية ، تربط

جنان الرسول ﷺ بآية تسليه أو بتأكيد النصر له ، كلما ادلهم الخطب ، واعصوصب الأمر .

ولطالما كان الملك جبرائيل ، ينزل إليه ﷺ لتسليته : **﴿واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً﴾** [سورة المزمل ؛ الآية : ١٠] ، **﴿واصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل﴾** [سورة الأحقاف ؛ الآية : ٣٥] . **﴿فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون﴾** [سورة فاطر ؛ الآية : ٨] .

وكان الوحي بأمر الله ، يدرأ عن الرسول ﷺ ما يكال له من الأكاذيب والتهم ، ومما نزل في هذا المجال قوله تعالى : **﴿قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون . ولقد كذّبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذّبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا . . .﴾** [سورة الأنعام ؛ الآيتان : ٣٣ ـ ٣٤] .

٣ ـ تيسير حفظ القرآن :

إن الرسول ﷺ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، وإن تدرُّج تنزيل القرآن الكريم ، يسَّر عليه حفظه ، بخلاف غيره من الأنبياء ، فإنهم كانوا يقرؤون ويكتبون فيمكنهم حفظ ما ينزل إليهم من الشرائع والرسالات .

فلقد كان موسى ﷺ كاتباً ، كما تذكر التوراة التي بأيدينا . فقد جاء فيها : (وقال الرب لموسى اكتب لنفسك هذه الكلمات . لأنني بحسب هذه الكلمات قطعت عهداً معك . . . فكتب على اللوحين كلمات العهد الكلمات العشر)[١] .

وقال الفرّاء في معنى قوله تعالى : **﴿وقال الذين كفروا لولا نزّل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبّت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً﴾** [سورة الفرقان ؛ الآية : ٣٢] : إنها من قول المشركين . أي هلا أنزل عليه

---

(١) التوراة : سفر الخروج . الاصحاح ٣٤/٢٧ ، ٢٨ .

القرآن جملة كما أنزلت التوراة على موسى . قال الله : ﴿ورتلناه ترتيلاً﴾ لنثبت به فؤادك ، كان ينزل الآية والآيتين[١] .

(وقيل معنى ﴿لنثبت به فؤادك﴾ أي لتحفظه فإنه ﷺ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ففرّق عليه ليثبت عليه حفظه بخلاف غيره من الأنبياء فإنه كان كاتباً قارئاً فيمكنه حفظ الجميع)[٢] .

(وقال ابن فورك : قيل أنزلت التوراة جملة لأنها نزلت على نبي يقرأ ويكتب وهو موسى . وأنزل القرآن مفرّقاً لأنه نزل غير مكتوب على نبي أمي)[٣] .

ولقد ساوى الله تعالى نبينا بسائر الأنبياء في إنزاله القرآن جملة[٤]، وفضل رسول الله ﷺ على سائر الأنبياء بتنزيله منجماً مرة أخرى ليحفظه . إذ إن تردد الوحي في كل ما يستجد من حادثة أشد عناية بالمرسل إليه كما أن فيه ما يبعث السرور في قلب الرسول ﷺ .

والأمية في رسول الله ﷺ صفة تعلي شأنه وتظهر إعجاز القرآن بجلاء . حيث ان القراءة والكتابة وسيلة للعلم لا غاية بذاتها . وقد جاء رسول الله ﷺ بما لم يأت به نبي ولا رسول ولا أحد من قبله ولا من بعده ، من سعة الشريعة الغراء وشمولها وسموها . ولو كان يقرأ ويكتب لما كان هذا الشأن الذي أبهر علماء العالم .

---

(١) الفراء : أبو زكريا يحيى بن زياد ، معاني القرآن ج ٢/٢٦٧ وما بعدها .

(٢) السيوطي : معترك الأقران ج ٢/٢٠٦ .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) قال السيوطي : (إن سائر الكتب أنزلت جملة ، وهو مشهور في كلام العلماء ، وعلى ألسنتهم حتى كاد يكون إجماعاً ، وقد رأيت بعض فضلاء العصر أنكر ذلك ، وقال إنه لا دليل عليه ، بل الصواب أنها نزلت مفرقات كالقرآن . وأقول : الصواب الأول) راجع الأدلة على ذلك : معترك الأقران في إعجاز القرآن ج ٢/٢٠٧
وجاء أيضاً : (أن نزول التوراة على موسى كان على زمان تكليمه . . . متراخياً في أكثر من أربعين سنة) تفسير شبر ، هامش ص ١٢ .

ثانياً ـ حكم تخصص القرآن :

١ ـ بيـان إعجـازه :

إن القـرآن الكريم حين نـزل آية أو آيتين إلى عشـر آيات طيلة مـا يقرب من ثلاث وعشـرين سنة ، على نسق واحـد ، وسمو واحـد ، دون تعارض أو اختلاف ، وهو يمر خلال تنزيله بأحوال شتى تعرض لرسـول الله ﷺ من شدّة ورخـاء وعسـر ويسـر ، دون أن ينعكس ذلـك على القرآن ودون أن يظهر فيه أي لون من ألوان الانفعال البشري الـذي تثيره تلك الأحداث الجسام ، فإن ذلك أظهر لعظمـة القرآن ، وآكـد لإعجازه ووحيه ، وهو يتحدى الثقلين أن يأتوا بسـورة من مثله طيلة هذه الأعوام .

٢ ـ بيان الميزة العملية للقرآن :

لم يكن القرآن كتاباً نظرياً يطرح في المجتمـع ليتفاعـل معـه : وعلى ضوء ما تتمخض عنه التجربـة تجرى عليه التعديـلات اللازمـة ، ويمـارس فيه النقضُ والإبـرام . إن هذا هـو شأن مـا يتـولـد عن العقـل البشـري ، حيث إن العقـل محـدود فمـا يتـولـد عنـه لا بـد أن يكـون محدوداً . أما القرآن الكريم فإنه﴿**الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير**﴾ [سورة هود ، الآية : ١] .

لقد جاء القرآن ليطبق ويهتدي به النـاس وينظم شؤونهم المعـاشية والمعادية ، وليقرر الحقوق والواجبات للفرد والجماعة ، ويقيم الموازين القسط بين النـاس . لذا كـان لزامـاً أن يأتي مـطابقـاً لسـنة الله في تغيـر المجتمعـات وتطورهـا التدريجي . وهكـذا تمّ تنزيـل القـرآن على هـذه السنة : يأتي إلى الناس شيئاً فشيئـاً ، فيتغير النـاس بموجبـه شيئاً فشيئـاً حتى كمل تنزيل القرآن فكان المجتمع قد تغير بكامل جوانبه .

فـالجانب (العملي) في القـرآن ليس في المجال المـوضوعي و جاء به من تشريعات وأحكـام وقواعـد ونحو ذلـك فحسب ، بل إنـه

(عملياً) في الطريقة أو الأسلوب الذي تم تنزيله ، ولولا هذا الأسلوب لما امتاز بسمته العملية التي ميزته وأكسبته قوّة فعّالة إلى جانب قوّته الموضوعية الأصلية في التأثير .

٣ ـ أولوية الوحي :

مما روعي في تنجيم القرآن أولوية ما يكون ماثلاً من الوقائع . إذ إن بسط الموضوع نظرياً ليس له من التأثير ـ عقائدياً واجتماعياً ـ كما لو نزل الحكم إثر واقعة من الوقائع ، أو عند احتياج الناس إليه ، الأمر الذي كان يكسب الأحكام صفة الالتزام المباشر من قبل الناس . فإذا أُنزلت آية في أحكام الأسرى ، وليس لدى المسلمين أسرى فإن الالتزام بها سيكون في المستقبل . ولكن حين تنزل إثر وقوع المشركين أسرى والمسلمون لا يعلمون أحكامهم هل يفدَوْن ؟ أم يُطلق سراحهم مناً ؟ أم ؟ فإنه مما لا شك فيه سيكون لنزول القرآن حسب الحاجة ومع الوقائع من الأثر التطبيقي ما لا يكون له فيما لو نزل نظرياً دون وجود الحاجة .

وإذا كان القرآن قد نزل منجماً ، ليساير أولوية ما يستجد من الوقائع ، فإن نصوصه وأحكامه التشريعية تبقى عامة شاملة لا تختص بما نزلت لمعالجته من الوقائع ، بل هي حسب القاعدة (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب) .

٤ ـ التدرّج التشريعي :

إن تنزيل القرآن تدريجياً كان تحاشياً لهزات اجتماعية عنيفة ، وردّات انتكاسية حادة ، كان من المحتمل أن تحدث ، لولا أن جاء القرآن تبعاً للوقائع والأحداث ، ووفق ما تستوعبه طبيعة المجتمع .

فالرسالة الإسلامية بعامة ، والقرآن بخاصة ، مدّ الناس رويداً رويداً بما يوافق تطويرهم ، من التشريعات . ولأن ما جاء به القرآن

الكريم يشمل النواحي الحياتية جميعها ، فلم يكن من الحكمة أن يوضع بين يدي الناس تشريع يتناول عقائدهم وتعاملهم وأخلاقهم دفعة واحدة . ولو تمّ ذلك لما نفذ إلى القلوب ، ولبقي ما بقيت القوّة مهيمنة ، وسرعان ما يرتد[1] الناس عما أكرهوا عليه ، في حين نجد أن العقيدة والالتزام بالإسلام استقرّ في قلوب المسلمين ، وبالرغم من كل المحن والهزات التي حدثت من لدن وفاة رسول الله ﷺ حتى يومنا الحاضر فإن الإسلام ملأ قلوب المسلمين فكأنه خالط دماءهم واستقر في عروقهم .

ثالثاً ـ حكم تخص الناس :

١ ـ قوّة الإلزام والإقناع :

إن نزول القرآن تنجيماً ، جعل للحكم المنزل قوّة إلزامية واضحة ، باعتباره حكم الله المنزل في تلك الواقعة ، وفي ذلك الظرف . ومنحه قوة الاقتناع به ، والتسليم له ، ولنزوله عند قيام الحدث ، أو مثول الواقعة .

فالمصاحبة الزمنية بين الحكم الذي تنزل به الآية ، والحدث أو الواقعة سبب متين للامتثال والتطبيق . الأمر الذي أحدث ترابطاً وتلازماً بين التشريع والتنفيذ . ولهذا كان المسلمون ، إذا سمعوا عشراً من الآيات يهرعون لتطبيقها ، ثم يعودون للاستزادة ، ولو فرض نزوله دفعة واحدة لما تحقق ذلك .

---

(١) لقد بالغ المستشرقون في عدد من ارتد في عهد الخليفة أبي بكر الصديق ، طعناً في الإسلام ، والأمر لم يقع كما ذكروا ، وإنما ارتد أفراد في الجزيرة العربية وامتنع جماعة من مبايعة الخليفة ، وثارت قبائل وثنية لم تسلم من قبل ، حتى سمع أحد الأسرى يقول (ما آمنت طرفة عين قط) وامتنع آخرون عن أداء مال الزكاة ، فقال أبو بكر (لو منعوني عقالاً لقاتلتهم) فجرى قتالهم .

٢ ـ ربط المسلمين بالمصدر التشريعي

كان من جرّاء تنجيم القرآن الكريم، أن صار المسلمون إذا وقعت واقعة، أو جد أمر استشرفوا هبوط الوحي، وانتظروا حكم الله تعالى ينزل إليهم، وفي هذا شد وثيق لتصرفات الناس بالمصدر التشريعي، وإخضاع إرادة المسلمين لإرادة خالقهم المشرع سبحانه وتعالى.

٣ ـ دفع الضيق والحرج التشريعي:

إن تنزيل القرآن نجوماً، جعل الشرع يحيط بالناس شيئاً فشيئاً دون شعورهم بأدنى حرج، فهم ينفذون الإسلام وينسلون من الجاهلية في سياق حياتهم الاعتيادية، من غير إلجاء ولا إكراه، في حين لو نزل التشريع دفعة واحدة، وألزم الناس به جملة، لوجد الناس فيه حرجاً وكلفة، ولعانوا منه ضيقاً ومشقة ﴿وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً﴾ [سورة الإسراء، الآية: ١٠٦].

ومرة أخرى إن هذه الحِكَم إن هي إلا أفكار إسلامية، وليست أحكاماً شرعية، وقد ذكرناها بناء على ما وقفنا عليه من أسرار التشريع، ومقاصد الشريعة وأحداث السيرة الشريفة. والله تعالى العالم المطلع على الأسرار والسرائر.

ومن الراجح أن نضيف لهذه الحكم كون القرآن يتضمن الناسخ والمنسوخ، ومقتضاه أن ينزل منجماً. كما أنه يتضمن الإنكار لما قد يقع وجواب من يسأل عن أمر ما، فإن كل ذلك يقتضي نزوله منجماً. وفي علم الله تعالى من حكم التنجيم ما لم نحط به علماً. وما أوتينا من العلم إلا قليلاً.

المبحث الخامس
أسباب النزول

نتناول بالبحث في المطالب الآتية معنى (سبب النزول) واهمية معرفته ، وتعدد النازل والسبب واحد . وتعدد الأسباب والنازل واحد ، ودلالة القاعدة الأصولية : العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

المطلب الأوّل
معنى سبب النزول

هل أن القرآن الكريم ما كان ينزل منه شيء إلاّ إجابة عن سؤال يرفع إلى الرسول ﷺ ، أو تحديداً لموقف يجدّ عند المسلمين ، أو حكماً لواقعة حدثت ؟ أم أن القرآن كان ينزل ابتداء دون داع سابق عليه ؟ أم منه ما نزل ابتداء ، ومنه ما نزل لسبب ، فكان نزوله بناء على ذلك السبب ؟

وقبل بيان هذه الأمور لا بد من معرفة سبب النزول :

سبب النزول :

هو ما نزلت من أجله آية أو أكثر مجيبة عنه أو حاكية له ، أو مبينة حكمه . ومن الأمثلة على أسباب النزول :

١ ـ مسجد ضِرار :

شيّد بنو عمرو بن عوف مسجد (قباء) ، وطلبوا من رسول الله ﷺ أن يصلّي فيه ، فصلّى[1] ، فحسدهم جماعة من المنافقين .

---

(١) نزل رسول الله ﷺ بقباء على بني عمرو بن عوف في اليوم الثامن من ربيع الأول الموافق ٢٠ أيلول سنة ٦٢٢ م ، ومكث بها أياماً وأسس مسجد قباء وقيل إن النبي الكريم كان عمره (٥٣) سنة عند قدومه المدينة .

فقالوا نبني مسجداً آخر ، فنصلّي فيه ، ولا نحضر جماعة محمد ﷺ . فأنزل الله تعالى : ﴿والذين اتخذوا مسجداً ضِراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين ، وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفنَّ إن أردنا إلاَّ الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون﴾ [سورة التوبة ، الآية : ١٠٨] . فصار بناء مسجد ضِرار سبباً من أسباب النزول .

٢ ـ إطعام المسكين واليتيم والأسير :

مرض الحسنان عليهما السلام فنذر الإمام علي عليه السلام صوم ثلاثة أيام لله تعالى عند شفائهما ، فشفيا ، فصام وفاطمة الزهراء عليها السلام وجاريتهم فضة[1] وكانوا إذا أرادوا الإفطار جاءهم في اليوم الأول مسكين واليوم الثاني يتيم واليوم الثالث أسير ، وكانوا يعطونهم إفطارهم ، ويفطرون على الماء وحده في كل ليلة ، فأنزل الله تعالى : ﴿ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً﴾ [سورة الإنسان ، الآية : ٩] .

٣ ـ التصدق بالخاتم :

سأل سائل صدقة في المسجد . وكان الإمام علي عليه السلام راكعاً . فأومأ إليه بخنصره ، فأخذ منها خاتمه ، فأنزل الله تعالى قوله : ﴿إنما وليّكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصَّلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون﴾ [سورة المائدة ، الآية : ٥٥] .

٤ ـ تواضع رسول الله ﷺ :

عن سلمان الفارسي قال جاءت المؤلفة قلوبهم إلى رسول الله ﷺ . فقالوا يا رسول الله ، إنك لو جلست في صدر المجلس ، ونحيّت عنا هؤلاء ، وأرواح جبابهم ـ يعنون سلمان وأبا ذر وفقراء المسلمين ، وكانت عليهم جباب الصوف ، لم يكن عليهم غيرها ـ

(١) النسفي : تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) ج ٣١٨/٤ .
(٢) المصدر نفسه : ج ٢٨٨/١ .

جلسنا إليك ، وحادثناك ، وأخذنا عنك . فأنزل الله تعالى : ﴿واتل ما أوحي إليك من كتاب ربك لا مبدّل لكلماته ولن تجد من دونه مُلتحَداً . واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً﴾ [سورة الكهف ، الآيتان : ٢٧ - ٢٨] . فقام النبي ﷺ يلتمسهم حتى إذا أصابهم في مؤخر المسجد يذكرون الله تعالى قال : (الحمد لله الذي لم يمتني ، حتى أمرني أن أصبر نفسي مع رجال من أمتي ، معكم المحيا ومعكم الممات)(١) .

هذه الأمثلة على أسباب النزول توضح لنا أنها ليست على نمط واحد ، وإنما قد تكون مدحاً وإطراءً لموقف ، أو حلاً لمشكلة ، أو جواباً لسؤال أو تعقيباً على حادث أو بياناً لحكم أو نحو ذلك حسب الاقتضاء .

ويلاحظ من تعريفنا سبب النزول ، وماضربناه من أمثلة عليه أن الآيات القرآنية أو السور يمكن أن تصنف بوجه عام إلى قسمين :

القسم الأوّل :

ما نزل لسبب وكان هذا السبب هو المثير والداعي للنزول ولا شك أنه كان معاصراً للوحي . وهذا القسم من القرآن هو ما تتحدث عنه كتب التفاسير في أسباب النزول .

القسم الثاني :

ما نزل ابتداءً ، دون واقعة وقعت ، أو أمر حدث ، في عصر الوحي اقتضى نزول الوحي بشأنه ولأجله ، وهذا القسم يشمل أحداث الأمم الماضية التي يسردها القرآن للتوعية والتدبر والاعتبار ، كما يشمل الأنباء الغيبية ، وتصوير البرزخ ، ومشاهد البعث والنشور ، وأحوال يوم

---

(١) الواحدي : أسباب النزول ص ٢٠١ .

القيامة ، وأهل الجنة والنار ، وأوصاف الجنة وأوصاف النار ، وقصة بناء الكعبة ، ونحو ذلك .

ومن الواضح أن قصص الأمم الغابرة ونحوها وقعت قبل عصر الوحي ، ونزول الوحي عنها لغرض إعلام الرسول والمؤمنين بوقائع تلك القصص ، وأحداثها ونتائجها ، وما عليه أهل الجنة من نعيم ، وما عليه أهل النار من شقاء وعذاب وهكذا . . . ومع ذلك ، فقد يرفع سؤال من الصحابة أو غيرهم إلى رسول الله ﷺ عن قصة (ذي القرنين) مثلاً وما جرى له ﴿يسألونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكراً﴾ [سورة الكهف ؛ الآية : ٨٣] . فإن هذا السؤال يعد سبباً لسرد أحداث القصة على الرسول ﷺ وإطلاع الناس عليها ولا يعد مثيراً لأحداثها لأنها قد سبقته بقرون .

المطلب الثاني
أهمية معرفة سبب النزول

إن للوقوف على سبب النزول أهمية كبيرة في التعرّف على مدلول الآية ومفهومها ، ووجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم ، إذ كما قيل (العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب) . ولا شك أن صياغة الآية وطريقة التعبير عنها يتأثر إلى حد كبير بسبب نزولها . فالاستفهام مثلاً لفظ واحد ولكنه يخرج إلى معان أخرى كالتقرير والنفي وغيره ولا يفهم المراد إلا بالأمور الخارجية ، والقرائن الحالية .

وأكثر المفسرين قدرة على إتقان التفسير وتحقيقه أكثرهم علماً بأسباب النزول ، ولهذا كان أمير المؤمنين الإمام علي ﵁ : أقدر الناس بعد رسول الله ﷺ على تفسير القرآن ، لإحاطته علماً بأسباب النزول ، وهو القائل : (والله لم تنزل آية إلا وأنا أعلم فيما نزلت ، وفيمن نزلت ، وأين نزلت) . وروى معمر عن وهب بن عبد الله عن أبي الطفيل قال شهدت علياً يخطب يقول : سلوني ، فوالله لا تسألون عن

شيء إلّا أخبرتكم ، وسلوني عن كتاب الله ، فوالله ما من آية إلّا وأنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار ، أم في سهل أم في جبل [1] .

إن لمعرفة الزمان والمكان والأشخاص وسائر ظروف (قصة) الآية أو السورة أكبر تأثير على سبر غورها وإماطة اللثام عن مكنون مرادها . والعكس بالعكس ، فالجهل بتلك الأمور يؤدي إلى تعطيلها ، ولربما العمل بخلاف مؤداها ومرامها . قال الواحدي (لامتناع معرفة تفسير الآية وقصد سبيلها دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها)[2] .

وفيما يلي الأمثلة لبيان أهمية معرفة سبب النزول :

١ ـ قوله تعالىٰ : **﴿ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثمّ وجه الله إن الله واسع عليم﴾** [سورة البقرة ؛ الآية : ١١٥] .

والمتبادر من مدلول ألفاظ الآية ، ومن ظاهر سياقها ، أن المصلّي له أن يصلّي إلى أية جهة كانت في السفر والحضر ، فللّه المشارق والمغارب ، فأينما يولي المصلّي وجهه فقد توجه إلى الله تعالىٰ ، وهذا خلاف الإجماع ، وهو يتعارض مع قوله تعالىٰ : **﴿. . . فولّ وجهك شطر المسجد الحرام . . .]﴾** [سورة البقرة ؛ الآية : ١٤٤] .

وبالتعرف على سبب النزول يتضح أنها (نزلت في صلاة التطوع وعلى الراحلة ، تصليها حيثما توجهت إذا كنت في سفر . وأما الفرائض فحسب قوله تعالىٰ : **﴿. . . . وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره . . .﴾** [سورة البقرة ؛ الآية : ١٥٠] . يعني أن الفرائض لا تصلوها إلّا إلى القبلة)[3] .

---

(١) السيوطي : الإتقان ج ١٨٧/١ .

(٢) الواحدي : أسباب النزول ص ٤ .

(٣) الطبرسي : مجمع البيان ج ١٩١/١ . ابن كثير : التفسير ج ١٥٨/١ ، السيوطي : الإتقان ج ٢٩/١ .

٢ ـ قوله تعالى : ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا . . .﴾ [سورة المائدة ، الآية : ٩٣] . فقد حكي أن البعض كان يقول إن الخمرة مباحة ، ويحتج بالآية لجهله سبب نزولها[١] .

والقصة[٢] لما نزل تحريم الخمرة وأنها رجس من عمل الشيطان ، قال بعض المسلمين كيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يشربونها ، فنزلت هذه الآية : ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا . . .﴾ الآية .

٣ ـ قوله تعالى : ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوَّف بهما . . .﴾ [سورة البقرة ، الآية : ١٥٨] .

فظاهر الآية هو رفع الإثم ، ونفي الحرمة ، عمّن يسعى بين الصفا والمروة ، وأن السعي سائغ وليس فيه حرمة . وليس في ظاهر ألفاظ الآية ما يفيد وجوب السعي . وهذا فهم من لم يقف على سبب نزولها .

والقصة أن بعض الصحابة تأثموا[٣] من السعي بين الصفا والمروة لأنه من عمل الجاهلية[٤] فنزلت الآية ، لنفي هذه الفكرة من جهة ، ولإعلان أن الصفا والمروة من شعائر الله من جهة أُخرى . فمن يجهل سبب نزولها يجهل الغرض من طريقة التعبير الذي جاءت به الآية ، وبالتالي فإنه سيجهل وجوب السعي بين الصفا والمروة ، ويعتبره أمراً

---

(١) الزركشي : البرهان : ج ٢٨/١ . السيوطي : الإتقان ج ٢٢٩/١ .

(٢) انظر الواحدي : أسباب النزول ، ص ١٤٠ ـ ١٤١ . الزركشي : البرهان ج ٢٨/١ .

(٣) ابن كثير : التفسير ، ج ١٩٩/١ . وقيل لوجود (أساف) على الصفا ، و (نائلة) على المروة وهما صنمان كانا في الجاهلية .

(٤) من هذه القصة نعلم مدى حيطة المسلمين الأوائل وتجنبهم كل أعمال الجاهلية وتحسسهم ووعيهم وإخلاصهم للإسلام .

سائغا لمن أراده .

قال ابن عباس : (كراهية المؤمنين للطواف بين الصفا والمروة من قبل الصنمين اللذين كانا عليهما فقال ـ تعالى ـ ﴿إن الصفا والمروة﴾ يقول الطواف بين الصفا والمروة ﴿من شعائر الله﴾ مما أمر الله تعالى به من مناسك الحج)[1] .

ومن هذه الأمثلة يمكن تلخيص أهمية معرفة سبب النزول بالأمور التالية :

١ ـ معرفة وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم .

٢ ـ الوقوف على المعنى المراد .

٣ ـ معرفة ما إذا كان اللفظ عاماً ويقوم الدليل على التخصيص .

المطلب الثالث
تعدد الأسباب والنازل واحد
وتعدد النازل والسبب واحد

أولاً ـ تعدد الأسباب والنازل واحد :

ذكرنا في شرحنا معنى سبب النزول : أنه قد كان يحدث في عصر الوحي ما يكون سبباً لنزول آية أو أكثر، وهذا السبب نفسه قد يتكرر في أكثر من مكان أو زمان ، أو من أكثر من شخص أو ظرف، ويستدعي ذلك نزول الوحي بجواب له ، وتسمى هذه الحالة تعدد الأسباب والنازل ـ من الوحي ـ واحد . (ونزول الشيء أكثر من مرّة قد يكون تعظيماً لشأنه وتذكيراً به عند حدوث سببه خوف نسيانه)[2] .

فتعدد الأسباب ، قد يقتضي تعدد النزول ، وإن كان النازل واحداً

---

(١) تنوير المقباس تفسير ابن عباس : مطبوع هامش الدر المنثور للسيوطي ج ١ / ٧٠ .
(٢) الزركشي : البرهان ، ج ١ / ٢٩ .

مثاله أن سورة الإخلاص : نزلت نفسها مرتين[1] إحداهما بمكة جواباً للمشركين من أهلها ، والأخرى بالمدينة جواباً لأهل الكتاب من أهلها ، وذلك بعد الهجرة المباركة إليها . فهنا نجد تعدد الأسباب وتعدد النزول ، غير أن النازل واحد[2] .

ثانياً ـ تعدد النازل والسبب واحد :

كما يكون النازل واحداً والأسباب متعددة ، يكون النازل متعدداً والسبب واحد . مثاله أن أم سلمة قالت : يا رسول الله لا أسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء . . . فأنزل الله تعالى **﴿فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض ، فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثواباً من عند الله والله عنده حسن الثواب﴾** [فهذه آية من سورة آل عمران ؛ الآية : ١٩٥] . وأنزل أيضاً قوله سبحانه : **﴿إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعدّ الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً﴾** [وهذه آية من سورة الأحزاب ؛ الآية : ٣٥] .

وبذلك يكون السبب واحداً ، وهو سؤال أم سلمة ، والنازل متعدداً وهو هاتان الآيتان من سورة آل عمران والأحزاب .

تعدد الآراء في سبب النزول :

وتأسيساً على ما ذكرنا فلا تعارض إذا وردت روايات تقول إن آية

---

(١) السيوطي : الإتقان ، ج ١/ ٣٥ .

(٢) أنكر بعضهم كون بعض القرآن تكرر نزوله لأن تحصيل ما هو حاصل لا فائدة فيه . انظر السيوطي : الإتقان ، ج ١/ ٣٦ .

﴿سأل سائل بعذاب واقع﴾ [سورة المعارج ؛ الآية : ١] ، نزلت بسبب كذا ووردت روايات أخرى تقول إنها وردت بمناسبة أمر آخر ، لجواز أن يكون نزولها في أكثر من سبب واحد ، كما هو الحال في تعدد الأسباب والنازل واحد ، وكذا الحال إذا ما اختلفت الروايات في ما نزل من الآيات بسبب من الأسباب ، فإنه جائز أن يتعدد النازل والسبب واحد كما ذكرنا . (ومن الجائز أيضاً أن ينقل سبب للنزول ويُراد به التفسير)[١] لا سيما وقد عرف من عادة الصحابة والتابعين[٢] أن أحدهم إذا قال : (نزلت هذه الآية في كذا) فإنه يريد بذلك أن الآية تتضمن هذا الحكم ، لا أن هذا كان السبب في نزولها .

المطلب الرابع
العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب

السؤال هو : هل السبب الذي استدعى نزول الآية يخصّص او يقيّد المدلول القرآني العام لها ؟ .

وبعبارة أخرى هل أن ما ينزل من القرآن لسبب من الأسباب يقتصر على ذلك السبب في ما أفاد من حكم ومدلول ؟ أم يتعدّاه إلى غيره من الأمور والوقائع المطابقة ؟ .

اتفق علماء الأصول على أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . وأرادوا بهذا ، أن السبب الذي نزل إثْرَه الوحي لا يحبس التشريع العام ولا يقيّده ، وإنما يكون ذلك السبب مجرّد مثير لنزول الوحي ، فيشمله الحكم النازل ، ويبقى هذا الحكم على عمومه سارياً على كل الوقائع والأحداث المماثلة لذلك السبب . مثاله :

أن الله تعالىٰ أوحى ﴿والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا

(١) السيوطي : الإتقان ، ج ٣٦/١ .
(٢) الزركشي : البرهان ، ج ٣٢/١ .

بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون﴾ [سورة النور ، الآية : ٤] .

ولفظ المحصنات يشمل الزوجات وغيرهن ، فوقع الصحابة في حرج وذهبوا إلى رسول الله ﷺ وهم كارهون ، وشرحوا له ما أشكل أمره عليهم قائلين : يا رسول الله إذا رأى أحدٌ منّا رجلاً مع امرأته إن أخبر بما رأى جُلد ثمانين جلدة ـ لعدم البينة ـ وإن التمس أربعة شهداء قضى الرجل منها حاجته وانصرف . . . فأنزل الله تعالىٰ : ﴿والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربعُ شهادات بالله إنه من الصادقين والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين﴾ [سورة النور ، الآيتان : ٦ ـ ٧] .

قال الفرّاء : وقوله ﴿والذين يرمون أزواجهم﴾ بالزنى : نزلت في عاصم بن عدي لمّا أنزل الله الأربعة الشهود قال : يا رسول الله إن دخل أحدنا فرأى على بطنها رجلاً (يعني امرأته) احتاج أن يخرج فيأتي بأربعة شهداء إلى ذلك (ما)[1] قد مضى حاجته وخرج ، وإن قتلته قتلت به ، وإن قلت فعل بها جلدتُ الحدّ ، فابتلى بها[2] .

فنزول آية ﴿والذين يرمون أزواجهم . . .﴾ في مثل هذا الظرف لا يقصر حكمها على من نزلت بهم ، وإنما هي حكم عام لمن قذف زوجه بالخيانة الزوجية في أي زمان ومكان .

وهكذا شأن آية الظهار في قصة (سلمة بن صخر) حين ظاهر زوجه حتى ينسلخ شهر رمضان ، ثم واقعها فيه على غفلة منه فأنزل الله تعالى حكم الظهار . وهكذا شأن سائر الأحكام التي تضمنتها آيات نزلت بأسباب خاصة فإنها على عمومها دون أن يخصصها السبب .

---

(١) كذا وردت .

(٢) معاني القرآن ، ج ٢/٢٤٦ .

ومما يؤكد هذا المعنى ما ورد عن أهل بيت النبوة : (فعن الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام أنه قال : إن القرآن حيّ لا يموت ، وإن الآية حيّة لا تموت ، فلو كانت الآية إذا نزلت في الأقوام وماتوا ماتت الآية لمات القرآن ، ولكن هي جارية في الباقين كما جرت في الماضين .

الفصل الرابع

الوحي المكي والمدني

- معرفة المكي والمدني .
- خصائص المكي والمدني .

المبحث الأول
معرفة المكي والمدني

تمهيـد :

تـواضع العلمـاء على استعمـال اصـطلاح (المكي) على قسم من القـرآن الكـريم و (المـدني) على القسم الآخر منه . قال اليعقـوبي : (نـزل من القرآن بمكـة اثنتـان وثمـانـون سـورة على مـا رواه محمـد بن حفص بن أسـد الكوفي عن محمد بن كثير ، ومحمـد بن السائب الكلبي عن أبي صـالـح عن ابن عبـاس . ونـزل بـالمـدينـة اثنتـان وثـلاثـون سورة)[1] .

ولأهميـة معـرفـة المكي والمـدني من القـرآن الكـريم اهتم بهمـا العلماء ، ونبحث فيما يلي من المطالب : مصادر معرفة المكي والمدني والأسس التي سـار عليها العلمـاء في التمييز بينهمـا ، وترجيـح مـا نـراه راجحاً منها ، وسبب هذا الترجيح ، وأهمية معرفة المكي والمدني .

المطلب الأوّل
مصادر معرفة المكي والمدني

اعتمـد أكثر البـاحثين في التمييز بين مكي القـرآن ومدنيـه ـ بادىء

(١) تاريخ اليعقوبي : ج ٢/٢٦ ، ٣٥ .

الأمر ـ على الروايات والنصوص المنقولة التي تؤرخ السورة أو الآية أو تشير إلى زمن نزولها أو مكانه ، وعلى الأحداث التاريخية المهمة التي عاصرت النزول ، أو كان النزول بسببها . وهذا ما سلكه المستشرق الألماني (نولدكه) في بحثه تاريخ القرآن .

ثم عكفوا على دراسة ما عرفوا من مكي القرآن ومدنيه بالطريقة السابقة فاستطاعوا أن يتعرفوا على (خصائص) شائعة غالبة في المكي ، وأخرى في المدني ، تمكّنوا عن طريقها من معرفة وتمييز عدد كبير من السور والآيات ، وصنفوها إلى مكي ومدني ، ودوّنوها في كتب المصاحف والتفاسير ، وأصبحت هذه الكتب من مصادر معرفة المكي والمدني أيضاً .

وبهذا تكونت طريقتان لمعرفة المكي والمدني :

الأولى : الطريقة الاستقرائية ، التي تعتمد على النقل . وقد تسمى السماعية .

الثانية : الطريقة الاستنباطية ، التي تعتمد على العقل . وقد تسمى القياسية .

فالذين اتبعوا طريقة الاستقراء ، توقفوا عند الروايات والنصوص والأحداث التي تشير أو تؤرخ السور والآيات ، فيعرف المكي منها والمدني . أما الذين اتبعوا طريقة الاستنباط ، فقد استندوا على ما تعرفوا عليه من خصائص للمكي والمدني من حيث أُسلوب وموضوعات السور والآيات ، ثم ميّزوا بينها بناء على اجتهادهم .

ولعل أرجح الطريقتين : هو الجمع بين الإستقراء والإستنباط . فإنه بهذا الجمع تكون النتائج أقرب إلى العلم ، وأبعد عن الظن والتخمين . إذ أن الطريقة الإستقرائية عاجزة تقريباً عن تمييز كثير من السور والآيات المكية ، لفقدانها الأحداث المهمة ، والنصوص التي تعوّل عليها في التمييز . كما أن الطريقة الإستنباطية طريقة قياسية أو

تخمينية ، فالخصائص المستنبطة إنما هي غالبة ، وليست قطعية خاصة بالمكي أو بالمدني . لذا رجح لدينا الجمع بين السماع والقياس في التمييز .

المطلب الثاني
أسس التمييز بين المكي والمدني

حاول العلماء : اعتبار أساس فاصل يميّز بين المكي والمدني من القرآن . فمنهم من جعل (الخطاب) الوارد في الآيات هو الأساس في التمييز ، ومنهم من جعل من مكان الرسول ﷺ هو الأساس ، والرهط الثالث اعتمد هجرة الرسول أساساً .

١ ـ الأساس الشخصي :

قالوا إن المكي من القرآن هو ما جاء الخطاب فيه (يا أيها الناس) لأنه خطاب لأهل مكة ، أما المدني فهو ما جاء الخطاب فيه (يا أيها الذين آمنوا) باعتبار أن أهل مكة لم يكونوا مسلمين ، فما جاء الخطاب فيه (يا أيها الناس) عرفنا أنه مكي ، وباعتبار أن أهل المدينة كانوا مسلمين ، فجاء الخطاب (يا أيها الذين آمنوا . . .) فعرفنا أنه مدني .

٢ ـ الأساس المكاني :

باعتبار أن الوحي لم ينزل إلاّ على الرسول ﷺ فجعلوا مكان الرسول ﷺ عند نزول الآية أو السورة أساساً للتمييز . فإن كان ﷺ في مكة فهي مكية سواء قبل هجرته أو بعدها . وإن كان في المدينة فهي مدنية .

٣ ـ الأساس الزماني :

ومقتضاه جعل الهجرة أساساً للتمييز . فصار المكي ما نزل من القرآن قبل الهجرة إلى المدينة ، وإن كان نزولهُ في غير مكة ، والمدني

ما نزل بعدَ الهجرة وإن كان نزوله في مكة .

مناقشة الاتجاهات الثلاثة :

لا بدّ من بيان أن لفظ (مكي) أو (مدني) ليس لفظاً شرعياً وليس من فرائض الأمة التي حددها الإسلام ووضع له مفهوماً ليدور النقاش والترجيح بين مذاهب العلماء على أساسه ، بل هو ما تواضع عليه الباحثون وسلكوا الاتجاهات الثلاثة السابقة للتمييز بين المكي والمدني .

غير أنا لا نستطيع تصويب الأساس الشخصي ، لأن الخطاب حين يرد ﴿**يا أيها الناس**﴾ لا يراد به أهل مكة ليكون خطاباً لهم فحسب ، وحين يرد ﴿**يا أيها الذين آمنوا**﴾ أو ﴿**يا أهل الكتاب**﴾ أو ﴿**من الأعراب منافقون . . .**﴾ لا يراد به أهل المدينة من المسلمين وأهل الكتاب والمنافقين فحسب ، بل يبقى العام على عمومه يشمل تطبيقاته في كل زمان ومكان .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ليس كل الآيات والسور فيها خطاب ليكون أسلوب الخطاب أساساً للتميز . ومن جهة ثالثة فإن في السور المكية خطاب ﴿**يا أيها الذين آمنوا**﴾ [كما في سورة الحج ، الآية : ٧٧] . وفي السور المدنية ﴿**يا أيها الناس**﴾ [كما في سورة البقرة ، الآية : ٢١] .

وإن الأساس المكاني يرد عليه أنه حتى لو أدخلنا ما نزل (بعرفات) و (منى) و (الحديبية) ضمن الآيات المكية ، وما نزل (ببدر) و (أحد) و (سلع) ضمن الآيات المدنية تبقى لدينا آيات لا مكية ولا مدنية بحسب الأساس المكاني . نظير الآيات التي نزلت على النبي ﷺ في إسرائه .

أما الأساس الزماني الذي جعل (الهجرة) فيصلاً بين المكي والمدني ، فإنه يشمل الآيات والسور جميعها ، إذ ما من آية أو سورة إلا

ونزلت إما قبل الهجرة وإما بعدها . فما نزل قبل الهجرة فهو مكي ، وما نزل بعد الهجرة فهو مدني ، بهذا الاعتبار .

الترجيح بين الاتجاهات الثلاثة :

يبدو أنه لا مجال للتردد في ترجيح الأساس الزماني وجعل الهجرة حداً فاصلاً لتقسيم السور والآيات إلى مكي ومدني ، لما أوردناه على الاتجاهين الآخرين من نقد ، ولما امتاز هذا الأساس من الدقة والشمول . كما أن هذا الأساس يوضح بجلاء مراحل دعوة الرسول ﷺ .

فلم تكن الهجرة النبوية حدثاً عابراً في حياة الرسالة الغراء ، والدعوة المباركة بل هي حدّ فيصل بين مرحلتين من حياتها : الأولى مرحلة التغيير والكفاح العقائدي ومقاومة الشرك والوثنية وتكوين القاعدة الملتزمة من المؤمنين والتصاقها بالقيادة النبوية ، والثانية مرحلة الحكم والقضاء والإدارة ضمن دولة ذات سيادة وسلطان .

ومن خلال معرفة المكي والمدني نستطيع مواكبة تطور سير الدعوة وإدراك الأصول العامة لنظرية التغيير الاجتماعي على أساس الفكر الإسلامي طبقاً لعمل الرسول ﷺ في مكة والمدينة وبحسب ما نزل من مكي القرآن ومدنيّه[1] .

وأما ما يُقال من قدرة الأساس الزماني (الهجرة) على التمييز بين الناسخ والمنسوخ من الآيات ففيه نظر . إذ إن الآية المنسوخة والناسخة لو فرضنا نزولهما قبل الهجرة فهما مكيتان ولا مجال ـ بحسب هذا الأساس ـ لمعرفة السابقة لتكون منسوخة ، واللاحقة لتكون ناسخة .

---

(١) لا يفوتنا أن نذكر أن فترة الوحي المكي استغرقت ثلاث عشرة سنة تقريباً ، نزل خلالها ثلثا القرآن . وإن فترة الوحي المدني استغرقت عشر سنوات تقريباً نزل خلالها ثلث القرآن .

وكذلك لو فرضنا نزولهما بعد الهجرة فهما مدنيتان ولا مجال - بحسب الأساس أيضاً - لمعرفة الناسخ والمنسوخ منهما . هذا بالإضافة إلى أن الرأي الراجح أن النسخ في القرآن لم يقع إلاّ في مجالين[1] ، الأول : قوله تعالىٰ ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدّموا بين يديْ نجواكم صدقة ذلك خير لكم وأطهر ، فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم﴾ [سورة المجادلة ؛ الآية : ١٢] . وهي آية لم يعمل بها إلاّ الإمام علي ﷺ ثم نسخت . وقد نسختها الآية ﴿أأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات ، فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصّلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله والله خبير بما تعملون﴾ [سورة المجادلة ؛ الآية : ١٣] . وهاتان آيتان في سورة المجادلة التي آياتها مدنية كلها . والمجال الثاني قوله تعالىٰ ﴿يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون﴾ [سورة الأنفال ؛ الآية : ٦٥] ، وقد نسختها الآية التي تليها ﴿الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً ، فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين﴾ [سورة الأنفال ؛ الآية : ٦٦] والسورة كلها مدنية .

المبحث الثاني
خصائص المكي والمدني

ليست الخصائص التي سنذكرها ، لا سيما الأسلوبية منها ، والتي تميّز - بصورة عامة - الآيات والسور المكية عن المدنية هي من الدقة والضبط بحيث تشمل جميع آيات القرآن الكريم وسوره . بل هي تؤدي دور الترجيح ، فتقوي أحد الاحتمالين على الآخر في الآيات والسور

(١) انظر ؛ التشريع الجنائي الإسلامي : عبد القادر عودة ، تعليق السيد إسماعيل الصدر ، ج ٣٦١/١ .

التي لم يرد بشأنها نص صحيح متناً وسنداً ، والتي لم ترتبط بواقعة أو حادثة تاريخية مشهورة تشخص هويتها .

فمن الممكن جداً أن تنزل سورة مدنية وهي تحمل بعض خصائص الأسلوب الشائع في السور المكية ، أو تنزل سورة مكية وهي تحمل بعض خصائص الأسلوب الشائع في السور المدنية . لذلك لا مجال للتعويل على الظن ، ولا يصح وسم السورة أو الآية بسمة المكي أو المدني بلا علم . غير أن هناك من الخصائص الموضوعية ما قد يؤدي إلى القطع بسمة الآية أو السورة دون تردد أو شك كالآيات المشرعة لأحكام الحرب وقواعد القانون الدولي والحقوق السياسية ونحوها مما تدل بموضوعها دلالة محددة أنها من سور وآيات المدينة والتي نزلت بعد قيام الدولة هناك .

كما توجد بعض الخصائص الأسلوبية ما تقوي ترجيح احتمال على آخر كالقوّة الفياضة في البيان والأسلوب الخطابي وقصر الآيات التي تمتاز بها الآيات المكية الداعية إلى تركيز العقيدة والدعوة إلى التوحيد . في حين يشيع ـ على الغالب ـ في القسم المدني الهدوء والترسل والتفصيل والطول والدعوة إلى التكاليف الشرعية .

ويمكن إيجاز الخصائص الأسلوبية والموضوعية الشائعة في المكي والأخرى الشائعة في القسم المدني فيما يلي :

أولاً ـ الخصائص الشائعة في أغلب القسم المكي :

١ ـ الدعوة إلى أصول العقيدة ، كالإيمان بالله واليوم الآخر ، وتصوير مشاهد الحساب وأهل الجنة وأهل النار .

٢ ـ الدعوة إلى التمسك بالخلق الرفيع ، وفعل الخير .

٣ ـ قصر الآيات والسور ـ بصورة عامة ـ .

٤ ـ مجادلة المشركين ، وإبطال عقائدهم ، وتسفيه أحلامهم .

٥ ـ كثرة القَسَم : بالله ، واليوم الآخر ، والبعث ، والقرآن ، وغير ذلك[١] .

٦ ـ كثرة استعمال ﴿يا أيها الناس﴾ وندرة استعمال ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ .

٧ ـ كثرة قصص الأنبياء والأمم ، وقصة آدم وإبليس .

ثانياً ـ الخصائص الشائعة في أغلب القسم المدني :

١ ـ طول السور أو الآيات ، وإطنابها .

٢ ـ مجادلة أهل الكتاب ، ودعوتهم إلى نبذ الغلو في دينهم[٢] .

٣ ـ التحدث عن المنافقين ، وكشف مواقفهم ووعيدهم .

٤ ـ كثرة ذكر الجهاد ، والإذن به ، وتفصيل أحكامه .

٥ ـ تفصيل أحكام الحدود ، والفرائض ، والحقوق ، والأنصبة الإرثية ، والقوانين السياسية والاقتصادية والمعاهدات والمواثيق الدولية .

٦ ـ تفصيل الأدلة والبراهين على الحقائق الدينية .

تنبيهات ضرورية :

الأول : إن هذه الخصائص ، في حالة انطباقها على عموم سورة من السور ، فلا يعني ذلك أن كل آياتها مكية أو مدنية . إذ قد تستثنى من السورة المدنية آيات مكية[٣] ، ومن السورة المكية آيات مدنية[٤] .

---

(١) ورد القسم في المكي ما يقرب من ثلاثين مرة . وفي المدني واحدة ﴿. . . بلى وربي لتبعثن﴾ [سورة التغابن ؛ الآية : ٧] .

(٢) كما في سورة البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والتوبة .

(٣) فسورة التوبة مدنية بينما الآيتان الأخيرتان مكيتان . وسورة البقرة مدنية في قول الجميع إلا آية وهي ﴿واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾ [الآية : ٢٨١] فإنها نزلت في يوم النحر في حجة الوداع بمنى .

(٤) فسورة الزمر مكية بينما آياتها (٢٥ ، ٥٣ ، ٥٤) مدنية .

الثاني : إن بعض الآيات أو السور قد تكون مدنية ، ولكن تنطبق عليها بعض الخصائص الأسلوبية الشائعة في القسم المكي ، مثاله سورة البقرة . وهي مدنية ، وفيها قوله تعالىٰ : ﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم . . .﴾ [الآية : ٢١] ، وكذلك فيها : ﴿يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً . . .﴾ [الآية : ١٦٨] . وسورة النساء مدنية أيضاً وفيها قوله تعالىٰ : ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم . . .﴾ [الآية : ١] وفيها : ﴿إنْ يَشأ يُذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين . . .﴾ [الآية : ٧٧] .

الثالث : إن بعض الخصائص الشائعة في القسم المدني نجدها في السور المكية مثالها سورة الحج ، وهي مكية وفيها قوله تعالىٰ : ﴿يا أيها الذين آمنوا . . .﴾ [الآية : ٧٧] .

الرابع : إن امتياز السور والآيات المكية بالقصر والإيجاز ، والقسم المدني بالطول والإسهاب لا يعني أن جميع المكي على هذا النحو ، وجميع المدني بهذه السمة . فسورة النصر ـ مثلاً ـ وهي ثلاث آيات ، والزلزلة ثمان آيات ، والبينة ثمان آيات وهي سور مدنية ، في حين أن الأنعام والأعراف مكية إلاّ بعض آياتهما . وهما من السور الطوال .

الخامس : إن هذه الخصائص لا يمكن اتخاذها مثار شبهات لاتهام القرآن بالتأثر بالبيئة ، ومن ثم التدليل على شبهة (بشرية القرآن) ، بل إن هذه الفوارق الغالبة في القسم المكي والمدني ، الأسلوبية منها والموضوعية ، كانت مراعاة لظروف الدعوة الإسلامية ، التي لم تأل جهداً باتخاذ كل الوسائل الفعالة المشروعة والمؤثرة ، لضمان انتشارها وتأثيرها في البيئة التي تحل فيها ، وبالتالي فهي من مقتضيات حكمة الله تعالىٰ : ﴿. . . الذي أتقن كل شيء إنه خبير بما تفعلون﴾ .

الفصل الخامس

جمع القرآن وتدوينه

- استظهار القرآن وتدوينه في عهد النبي (ص) .
- جمع القرآن وتوحيد المصاحف في عهد الخلفاء .

المبحث الأوّل
جمع القرآن وتدوينه
في عهد رسول الله (ص)

تمهيد :

من المعلوم أن القرآن الكريم كمل تنزيله خلال ما يقرب من ثلاث وعشرين سنة . وقد جاءت الروايات تذكر جمع القرآن في عهد رسول الله ﷺ . فما هي الأدوات التي استعملت لهذا الجمع ؟ وما معنى جمع القرآن ؟ وكيف تمّ هذا الجمع في عهد النبي ﷺ ؟ وما أدلته ؟ هذا ما سنبحثه بإيجاز فيما يلي :

المطلب الأوّل
معاني جمع القرآن وأدواته

يكتب ويستدل بعض الباحثين في جمع القرآن ، ويريدون به معاني شتى . والروايات التي تذكر جمع القرآن تختلف في العهد الذي تمّ فيه هذا الجمع . ومن يتدبر لفظ (الجمع) الوارد في الروايات ، يتجنب الوقوع في الوهم ، فمن خلال دراسة الروايات والأبحاث في هذا الصدد ، يبدو أن لفظ (الجمع) استعمل وأريد به أحد المعاني التالية :

أ ـ حفظه على سبيل الإستظهار في لوح القلب . ومنه يُقال لحفّاظ

القرآن جمّاعه .

ب ـ كتابته عل الأدوات المتوفرة ، ولكن مفرّق الأيات والسور ، أو مرتب الأيات مفرّق السور ، وكل سورة على رقعة من الرقاع .

جـ ـ كتابته متسلسل الأيات ، مرتب السور في مصحف واحد .

د ـ نسخه على قراءة واحدة متواترة في مصحف موحد .

أما تطبيقات هذه المعاني ، فقد مرّت بأكثر من عهد . أما المعنى الأول للجمع ، وهو الاستظهار ، فكان صدر رسول الله ﷺ وصدور الصحابة ألواحاً نقش فيها القرآن في عهده ﷺ ، وتمّ استظهاره من قبل المئات من المسلمين .

والمعنى الثاني تمّ في عهد رسول الله ﷺ أيضاً ، ووجد لدى قسم من الصحابة ، والمعنى الثالث تمّ في عهد أبي بكر (رض) بعد وفاة رسول الله ﷺ أما المعنى الرابع فهو ما قام به الخليفة عثمان بن عفان (رض) .

أما الأدوات التي كانت تستعمل في تدوين القرآن الكريم ، فقد جاءت الروايات تذكر قسماً منها ، وهو ما كان متوفراً آنذاك .

أدوات التدوين :

١ ـ العسب : جمع عسيب ، وهو جريد النخل بعد تجريده من الخوص يكتب على الطرف العريض منه . ومثلها الكرانيف .

٢ ـ اللخاف :(بكسر اللام) جمع لخفة(بفتح اللام) ،وهي صفائح الحجارة الرقاق .

٣ ـ الرقاع : جمع رقعة ، وتكون من جلد أو ورق .

٤ ـ الأكتاف : جمع كتف ، وهو عظم بعير أو شاة ، إذا جفّ كتبوا عليه .

٥ ـ الأقتاب : جمع قتب ، وهو الخشب الذي يوضع على ظهر البعير ليحمل عليه . كان يستعمل لنقش الكتابة عليه .

هذا بالإضافة إلى الحرير الذي كان يكتب عليه (وكانت الكتابة معروفة ومنتشرة في مكة إلى حدّ أبعد مما ذهب إليه النقد الحديث لمدّة طويلة . وقد دوّنت أجزاء من القرآن على مواد مختلفة متيسرة في بلاد العرب في القرن (٧ م ـ ١ هـ) كالرقاق والفخار الذي استعمله البابليون والآشوريون للكتابة وعظام ألواح الكتف)[١] .

المطلب الثاني
استظهار القرآن
في عهد رسول الله (ص)

إن جمع القرآن بالمعنى الإستظهاري ، تمّ في عهد رسول الله ﷺ بصورة جلية واضحة ، لا تقبل الشك ، ولا تحتاج إلى تدليل عليها . وكان رسول الله ﷺ أول الحفاظ وسيدهم قاطبة . ومع ذلك فنحن نذكر بعض الشواهد عليه .

والشواهد على استظهار القرآن كثيرة منها :

١ ـ قوله تعالى : ﴿لا تُحرّك به لسانك لتعجل به * إنَّ علينا جمعَه وقرآنه﴾ [سورة القيامة ؛ الآيتان : ١٦ ـ ١٧] ومعناه لا تحرّك لسانك يا رسول الله للتأكيد على كلمات الآيات قبل فراغ جبرائيل (إنّ علينا جمعه ، وقرآنه عليك ، حتى تحفظه ، ويمكنك تلاوته ، فلا تخف فوت شيء منه)[٢] .

و (إن علينا جمعه في صدرك ، وقرآنه ، وإجراء قراءته على

---

(١) غود فروا : النظم الإسلامية ، ص ٧٣ .

(٢) الطبرسي : مجمع البيان ج ٣٩٧/١ .

لسانك)[1] .

و (إنّ أمرَ هذا الوحي ، وحفظ هذا القرآن ، وجمعه وبيان مقاصده ، كل أولئك موكول إلى صاحبه . ودور - النبي - هو التلقي والبلاغ فليطمئن بالاً ، وليتلق الوحي كاملاً ، فيجده في صدره منقوشاً ثابتاً[2] .

٢ - قوله تعالى : ﴿سنقرئك فلا تنسى﴾ [سورة الأعلى ، الآية : ٧] .

فإن النبيَّ ﷺ كان إذا نزل عليه جبرائيل بالوحي ، يعيد ﷺ قراءة ما نزل ، مخافة أن ينساه ، فكان ﷺ لا يكاد جبرائيل يفرغ من آخر الوحي حتى يبدأ النبي ﷺ بقراءة أوله ، وترديده آية آية ، وتحريك لسانك به حرصاً عليه ، وشغفاً به ، وتأميناً له لتبليغه الأمة . حتى وافته بشرى ربه برفع مشقة الإستظهار عنه ، وأن الله تعالى تكفل بقلبه فلا ينسى ما يقرئه ربه .

٣ - كما أن جمّاع القرآن أي حفّاظه على عهد رسول الله ﷺ كانوا أكثر من أن تحصى أسماؤهم . ويكفي للإشارة إلى كثرتهم ، أنه قُتل منهم في عهد النبي ﷺ (سبعون) سنة ٤ هـ . في (بئر مَعونة) ، قال الزنجاني : (ولأجل ذلك أمر النبي ﷺ علياً ﷺ بجمعه وحذّر من تضييعه)[3] ، كما قتل يوم اليمامة (سبعون) من حفاظ القُرآن في عهد أبي بكر (رض) ، وفي رواية أنهم كانوا أربعمائة مقرىء ، وذكر ابن كثير : (لما استحرّ القتل بالقُراء ، أي اشتد وكثر في قرّاء القرآن يوم اليمامة ، يعني يوم قتال مسيلمة الكذاب وأصحابه بني حنيفة بأرض اليمامة . . . قتل من القُراء يومئذٍ قريب من خمسمائة . . .)[4] .

---

(١) تفسير شبر : ص ٥٤١ .

(٢) سيد قطب في ظلال القرآن مجلد ٨ ، ج ٢٠٤/٢٩ .

(٣) تاريخ القرآن ، ص ٦١ .

(٤) ابن كثير ، فضائل القرآن ، ص ٩ .

ولقد كان مسجد رسول الله ﷺ نادياً عامراً بتلاوة القرآن ، يضج بأصوات الحفاظ ، فأمرهم رسول الله ﷺ (أن يخفضوا أصواتهم ، لئلا يتخالطوا) .

٤ ـ كما أن الرسول ﷺ كان يدفع كل مهاجر جديد إلى أحد الحفّاظ ليعلمه حفظ القرآن الكريم ، فشاع حفظه بين الرجال والنساء ، ولقد افتتن المسلمون بحفظ القرآن ، وشغفوا به شغفاً جمّاً ، حتى إن المرأة المسلمة[١] كانت ترضى سورة من القرآن أو أكثر مهراً لها .

وذكر أبو عبيدة في (كتاب القراءات) القرّاء من أصحاب النبي ﷺ ، فعدّ من المهاجرين : الخلفاء الأربعة ، وطلحة ، وسعد ، وابن مسعود ، وحذيفة ، وسالماً ، وأبا هريرة ، وعبيد الله بن السائب ، والعبادلة[٢] وعائشة ، وحفصة ، وأم سلمة ، ومن الأنصار : عبادة بن الصامت ، ومعاذ الذي يكنّى أبا حليمة ، ومجمع بن جارية ، وفضالة بن عبيد ، ومسلمة بن مخلد[٣] .

بل إن اهتمام الرسول ﷺ بالقرآن كان مواكباً لنشر الدعوة الإسلامية ، منذ خيوط فجرها الأولى ، فإنه بادر فأرسل مصعب بن عمير إلى المدينة ، مع من بايعه بالعقبة الأولى وأمره أن يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام[٤] .

---

(١) عن سهل بن سعد قال : أتت النبي ﷺ امرأة فقالت إنها قد وهبت نفسها لله ولرسوله فقال : (ما لي في النساء من حاجة) فقال رجل : زوجنيها ؟ قال : (اعطها ثوباً) ، قال : لا أجد ، قال : (اعطها ولو خاتماً من حديد) فاعتل له . فقال : (ما معك من القرآن) ؟ قال : كذا وكذا . قال : (زوجتكها بما معك من القرآن) . ابن كثير : فضائل القرآن ، ص ٤٠ .

(٢) وهم : عبد الله بن عمر (ت ٧٣ هـ) ، عبد الله بن عمرو بن العاص (ت ٦٥ هـ) عبد الله بن عباس بن عبد المطلب (ت ٦٨ هـ) ، ومنهم عبد الله بن مسعود (ت ٣٢ هـ) .

(٣) الزنجاني : تاريخ القرآن ، ص ٤٠ .

(٤) ابن هشام : السيرة ، ج ٧٦/٢ .

٥ ـ وبعد فتح مكة راح استظهار القرآن وتعليمه ينتشر بين أهلها ، فقد (طلب النبي ﷺ من معاذ بن جبل أن يبقى في مكة بعد فتحها لكي يفقّه الناس في الدين ويعلّمهم القرآن)[١] .

وجاء جماعة للرسول ، فبعث معهم عباد بن بشر ، وطلب منه أن يعلمهم شرائع الإسلام ويقرئهم القرآن[٢] .

٦ ـ وكان رسول الله ﷺ يباشر بنفسه تعليم المسلمين القرآن ، بالإضافة إلى تعليم بعضهم بعضاً . قال عبد الله بن مسعود لأصحابه في الكوفة إني قرأت من لسان رسول الله ﷺ سبعين سورة[٣] .

وقد روى الطبري عن أحدهم ، أنه قال : حدّثنا الذين كانوا يقرئوننا ، أنهم كانوا يستقرئون من النبي ﷺ فكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعلموا ما فيها من العلم ، فتعلمنا القرآن والعمل جميعاً[٤] .

وقال عبد الله بن عباس : كان رسول الله ﷺ يعلمنا التشهد ، كما يعلمنا القرآن[٥] وقال أُبي بن كعب : رحت إلى المسجد فسمعت رجلاً يقرأ ، فقلت من أقرأك فقال رسول الله ﷺ[٦] .

قال المستشرق الفرنسي م . غود فروا :

ومنذ الأيام الأُولى للجماعة الإسلامية ، دعا الرسول ﷺ أتباعه إلى الإجتماع ليفضي إليهم بالوحي . . . ويحتمل أن تكون هذه

---

(١) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ج ٣٦٢/٢ .
(٢) ابن سعد : الطبقات ، ج ١١٦/٢ ، (ليدن ١٣٢٢ هـ) .
(٣) الطبري : التفسير ، ج ٢٨/١ .
(٤) المصدر نفسه : ج ٨٠/١ .
(٥) السهمي : تاريخ جرجان (حيدر آباد ١٩٥٠ م) ص ٢٨٩ .
(٦) المصدر نفسه : ج ٣٢/١ .

الإجتماعات لغرض العبادة ، وتلاوة القرآن ، واحتمال تفسير بعض غوامضه ، ومحاولة تثبيته في ذاكرة المؤمنين والواقع أن ذاكرة هؤلاء المؤمنين الأوائل ، أصبحت خير مؤتمن على الوحي وناقل له . . . ومما يميّز الإنسان ويرفع من قدره ، أن يكون (حافظاً) ، يحوي القرآن كله في صدره[1] .

أسباب اندفاع المسلمين لاستظهار القرآن :

الواقع أن هناك أكثر من سبب يدفع بالمسلمين لاستظهار القرآن الكريم وحفظه في الصدور ، ولعل من تلك الأسباب :

أ ـ إنه دستورهم الذي يسيرون بموجبه ، وفقههم الذي يبيّن لهم الحلال والحرام ، وما لهم وما عليهم ، فلا بدّ أن يستظهروه ، لا سيما وأنهم ما كانوا يتعلمون القرآن إلاّ للعمل بمقتضاه ، وتحديد تصرفاتهم وعلاقاتهم ومواقفهم حسب ما يأمر وينهى . فلم يكونوا كما عليه اليوم الكثير من المسلمين في علاقتهم بالقرآن ، وحفظه للتكسب به ، وتلاوته في الحفلات والمناسبات لتجميع الناس أو ترتيله في آذان الموتى من على قبورهم ، متناسين أنه دستورهم ، وسبيل سعادتهم وعزتهم ، ونجاتهم ورفعتهم في الدنيا والآخرة ، به سعدوا وسادوا وبتركه ذلّوا وخزوا ، ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ، وأنه لا سبيل إلى الهداية إلاّ سبيله ، ولا مفرّ إلاّ إليه ، ولا سعادة إلاّ به . وهو ما كان عليه إيمان المسلمين الأوائل .

ب ـ إنه آية كبرى في البلاغة ، وكانت عادة العرب ، استظهار النصوص البلاغية ، فكيف بالقرآن ، وقد تحدى كل بليغ ، وحيّر كل فصيح .

جـ ـ كانت لحفّاظ القرآن منزلة مرموقة بين المسلمين عامة ،

---

(١) م . غود فروا : النظم الإسلامية ، ص ٧٣ .

ولدى رسول الله ﷺ خاصة . وهذه الحالة الاجتماعية كافية بحد ذاتها ، لأن يتزاحم المسلمون ويتنافسوا على استظهار القرآن الكريم . قال معاذ : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (ما من رجل علّم ولده القرآن إلا توّجه الله به يوم القيامة تاج الملك ، وكسي حلتين لم ير الناس مثلهما)(1) .

وإذا كان الإجماع قائماً على أن ما بين دفتي المصحف الكريم هو ما نقل إلينا بالتواتر ، فإنه شاهد صدق على كثرة الحفاظ في عهد رسول الله ﷺ ، حتى بلغوا كثرة يؤمن تواطؤهم ، وصار نقلهم تواتراً .

المطلب الثالث

تدوين القرآن في عهد رسول الله (ص)

لقد تمّ تدوين القرآن في عهد رسول الله ﷺ ، فكان كلما هبط الوحي بالآيات الكريمة ، ثبتت في ذاكرة الرسول ﷺ وصحابته ، وسجلتها فوراً أيدي أمناء الوحي ، على ما كان لديهم من أدوات ، من عسب ولخاف ورقاع ونحوها . وكانت تودع في بيت رسول الله ﷺ .

وفيما يلي بعض الشواهد على تدوين القرآن ، في عهد الرسول الأمين ﷺ :

١ ـ قال أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي (ت ٢٤٣ هـ) في كتاب فهم السنن (كتابة القرآن ليست بمحدثة ، فإنه ﷺ كان يأمر بكتابته ، ولكنه كان مفرّقاً في الرقاع والأكتاف والعسب . . . كان ذلك بمنزلة أوراق وجدت في بيت رسول الله ﷺ)(2) .

---

(١) الطبري : التفسير ، ج ١٢١/١ .

(٢) انظر السيوطي ، الإتقان : ج ٥٨/١ ، الزنجاني ، تاريخ القرآن ، ص ٤٥ ، الزركشي البرهان ، ج ٢٣٨/١ ، القسطلاني : لطائف الإشارات ، ج ٥٢/١ .

٢ ـ قال زيد بن ثابت : فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال . وفي رواية من العسب والرقاع والأضلاع . وفي رواية من الأكتاف والأقتاب وصدور الرجال(١) .

وقول زيد بن ثابت : (. . . وصدور الرجال) أوْهَمَ بعض الباحثين أن القرآن الكريم لم يدوَّن في عهد رسول الله ﷺ والشواهد التاريخية والوقائع تُثْبت أنَّ زيد بن ثابت أراد بقوله (. . . وصدور الرجال) أن يعارض ما هو مدون لديه بما هو مستظهر من القرآن عند الحفاظ . ليجمع بذلك صحة الإستظهار وصحة التدوين في مصحف واحد .

٣ ـ حديث الثقلين : وهو قول النبي ﷺ (إني تارك فيكم الثقلين : كتاب الله ، وعترتي أهل بيتي ، ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً)(٢) ، وفي هذا الحديث دلالة على أن القرآن كان مكتوباً عند وفاة رسول الله ﷺ ، لأن لفظ (كتاب) بالتبادر هو الصحيفة أو الصحائف التي تضبط طائفة من المعاني فيكون القرآن قد كتب في عهد الرسول ﷺ ولم يبق في الصدور فحسب .

٤ ـ آيات التحدي :

إن القرآن تحدَّى المشركين وغيرهم بالإتيان بمثله ، أو بعشر سور أو بسورة من مثله ، مما يدلّ على أن القرآن بآياته وسوره كان في متناول أيديهم ، وسوره كانت متميزة مشهورة في الخارج ، مشهودة بحيث يتسنى للمشركين أن يظفروا بها ، أو أن تعطى لهم ، وإلاّ كان التحدي بغير الموجود ، وهو لا يصحّ .

---

(١) ابن كثير : فضائل القرآن ص ٩ .

(٢) هذا الحديث يرويه فريق (وسنتي) بدل (وعترتي أهل بيتي) وفي حسباننا أنه لا كبير فرق ، حيث أن العترة الطاهرة من أهل بيت الرسول ﷺ هم خزنة السنة وطريقها اللاحب ـ فصاحب الدار أدرى بالذي فيها ـ على أن المسلمين متفقون على أنه ﷺ ترك للأمة (كتاب الله) وهو مورد الإستدلال . .

٥ ـ روى جماعة كالطبراني وابن عساكر عن الشعبي أنه قال (جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ ستة من الأنصار : أبي بن كعب ، وزيد بن ثابت ، ومعاذ بن جبل ، وأبو الدرداء ، وسعد بن عبيد ، وأبو زيد ـ قيل هو قيس بن السكن ـ وكان مجمع بن جارية قد أخذه إلاّ سورتين أو ثلاث)[1] . مما يدل أن بين المسلمين من اشتهر بحيازته القرآن مدوّناً .

على أن في هذه الرواية تأملاً : إذ استطاع الرازي حصر جمع القرآن مدوّناً عند هؤلاء الستة ، إلاّ أن يكون قد استفسر من جميع المسلمين عند وفاة الرسول ﷺ عمن دوّن القرآن ، فلم يجده إلاّ عند هؤلاء الستة ، وهذا في غاية البعد عادة ، لكثرة المسلمين واختلاف أماكنهم ، لا سيما إذا علمنا أن امرأة ـ فكيف بالرجال ـ كانت قد جمعت القرآن مدوّناً ، وأسماها الرسول ﷺ الشهيدة ، وكان يزورها في بيتها[2] ، وقد استشهدت في عهد عمر بن الخطاب . الأمر الذي يدل أن من تمّ لهم جمع القرآن مدوناً هم أكثر من هؤلاء الستة .

ويُضاف إلى ما سبق ، أن هؤلاء من الأنصار ، وفي المهاجرين من جمع القرآن في عهد النبي مدوناً قطعاً ، ومن دون ريب أو شك ، وفي مقدمتهم الإمام علي ﷺ وقد ذكروا (إنه جمعه على ترتيب ما أنزل)[3] .

٦ ـ نزول القرآن الكريم على رسول الله ﷺ خلال ما يقرب من ثلاث وعشرين سنة ، وكان الرسول طيلة هذه المدة يقول لأصحابه ويدعو من يكتب عنده كلما تنزل عليه شيء من القرآن (ضعوا هذا في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا ، وتنزل عليه الآيات فيقول ضعوا هذه

(١) الزركشي : البرهان : ج ٢٤١/١ ، وانظر : القيسي ، الإبانة ص ٥٣ .
(٢) وهي أم ورقة بنت عبد الله بن الحارث ، وكان رسول الله قد أمرها أن تؤم أهل دارها : انظر الزنجاني : تاريخ القرآن ص ٤٦ ، السيوطي : الإتقان ج ٧٢/١ .
(٣) ابن كثير : فضائل القرآن ص ٢٨ .

في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا)[١] . مما يدل أن الرسول ﷺ كان يأمر بتدوين القرآن ويعلم كتبة الوحي موضع ما ينزل من الوحي بالنسبة للسورة .

٧ - وفي رواية علي بن إبراهيم عن أبي بكر الحضرمي عن أبي عبد الله جعفر بن محمد عليه السلام قال : إن رسول الله ﷺ قال لعلي : يا علي إن القرآن خلف فراشي في الصحف والحرير والقراطيس ، فخذوه واجمعوه ، ولا تضيّعوه كما ضيّعت اليهود التوراة ، وانطلق علي عليه السلام فجمعه في ثوب أصفر ثم ختم عليه[٢] .

فإذا أضفنا إلى هذه الشواهد رواية إسلام عمر[٣] وحرص الرسول على تعليم الكتابة[٤] صحابته ، ومن ذكرهم ابن إسحاق في الفهرست[٥] ، بالإضافة إلى أهمية القرآن بالنسبة للرسول ﷺ والأمة الإسلامية ، والشريعة الغرّاء ، يتحصل لدينا اليقين والقطع بأن القرآن

---

(١) ابن أبي داود : كتاب المصاحف ، ص ٣١ ، الزركشي : البرهان ج ١/٢٣٢ .

(٢) الزنجاني : تاريخ القرآن ص ٤٤ .

(٣) حين وجد في يد أخته فاطمة (صحيفة) فيها آيات من القرآن ، وكان بينها وبينه ما كان مما أدى إلى إسلامه ، انظر الزنجاني : تاريخ القرآن ص ٤٣ .

(٤) ذكر الحافظ الذهبي في (تذكرة الحفاظ) روى خارجة بن زيد عن أبيه قال : أتى النبي ﷺ المدينة ، وقد قرأت سبعة عشر سورة ، فقرأت على رسول الله ﷺ فأعجبه ذلك وقال : «يا زيد تعلم لي كتابة يهود فإني ما آمنهم على كتابي ، قال فحذقته في نصف شهر» . الزنجاني : تاريخ القرآن ص ٣٨ . ومنها يظهر شدة حرص الرسول ﷺ على تعليم أصحابه الكتابة ، وتدوين القرآن . (ولعل الصواب فحذقتها) .

(٥) ذكر محمد بن إسحاق في الفهرست أن جماع القرآن على عهد النبي ﷺ هم علي بن أبي طالب عليه السلام ، وسعد بن عبيد بن النعمان بن عمرو بن زيد ، وأبو الدرداء عويمر بن زيد ، ومعاذ بن جبل بن أوس ، وأبو زيد ثابت بن زيد بن النعمان ، وأُبي بن كعب بن قيس ، وعبيد بن معاوية ، وزيد بن ثابت . الزنجاني : تاريخ القرآن ص ٤٦ .

لم يستظهر في عهد رسول الله ﷺ فحسب بل دوّن كاملاً .

ومما تجدر الإشارة إليه ، أن جمع القرآن على صورة مصحف (منسق الآيات والسور) لم يتم في عهد الرسول الأمين ﷺ ولعل من أسباب ذلك :

أ ـ تنزيل القرآن منجماً :

فقد كانت تنزل بعض آيات سورة من السور ، وتنقطع بنزول آيات سورة أخرى ـ قبل تلك السورة أو بعدها ـ ثم يستأنف الوحي آيات السورة الأولى ، وهكذا حتى كمل التنزيل .

ولا شك أن حالة كهذه يتعذر ، بل يستحيل معها جمع القرآن مباشرة عند نزوله في مصحف واحد ، إذ يلزم ذلك تغييراً مستمراً في الرقاع المدوّن عليها ، لتوضع الآية الجديدة محلها ، أو أن يدوّن القرآن حسب نزوله ، وعندئذٍ لا يكون المصحف الذي بأيدينا ـ لتداخل نزول آيات سورة بآيات أخرى عند ذاك .

ب ـ بعد أن ختم الله تعالى الوحي وأتمّ النعمة وأكمل الدين ، لم يعش رسول الله ﷺ فترة مناسبة ، ليقوم هو بترتيب وجمع الرقاع ونحوها في مصحف منسق واحد ، فإنه ﷺ قبض في السنة التي نزلت فيها آخر آية من القرآن . غير أنه ﷺ ما توفي إلا بعد أن أعلم العدد الغفير من الصحابة بترتيب القرآن الكريم ، حتى صار حفاظ القرآن الكريم يقرأونه كاملاً مرتباً على نحو ما أمر به الرسول ﷺ ، بتعليم من جبرائيل في العرضة الأخيرة(١) ، فكان ذلك ضماناً لترتيب السور والآيات في مصحف واحد .

---

(١) في صحيح البخاري عن فاطمة رضي الله عنها : أسر النبي ﷺ إليّ أن جبرائيل كان يعارضني بالقرآن كل سنة مرة ، وأنه عارضني العام مرتين ، ولا أراه إلا حضور أجلي . الزركشي : البرهان ، ج ١/٢٣٢ .

المبحث الثاني
جمع القرآن وتوحيد المصاحف في عهد الخلفاء

المطلب الأوّل
جعل القرآن مصحفاً

روى العياشي في تفسيره في ذيل رواية له (قال علي ﷺ : إن رسول الله ﷺ أوصاني إذا واريته في حفرته أن لا أخرج من بيتي حتى أؤلف[1] كتاب الله ، فإنه في جرائد النخل وفي أكتاف الإبل . . .)[2] .

فحين أتمّ الإمام علي ﷺ تجهيز الرسول ﷺ وتكفينه ودفنه ، والناس منصرفون إلى شؤون البيعة والخلافة في سقيفة بني ساعدة ، انصرف أمير المؤمنين ﷺ إلى تنسيق تلك الرقاع وتنظيمها وترتيب سورها وآياتها ، وجعلها كتاباً موحداً يحقق ما لم يتسنّ لرسول الله ﷺ تحقيقه ، وعكف في بيته يجمع القرآن في مصحف واحد من الرقاع المتنوعة غير المنتظمة . وهذا هو معنى الجمع الذي مارسه علي بن أبي طالب ﷺ ، لا الجمع من صدور الرجال كما توهم البعض .

وقد ذكر الكليني : إن علياً ﷺ قال عندما جمع القرآن هذا كتاب الله . . وقد جمعته من اللوحين[3] والمقصود بالجمع : جعله بين دفتي المصحف لا كتابته ابتداءً فإنه كان مدوّناً لديه .

وعن عكرمة قال : (لما كان بعد بيعة أبي بكر قعد علي بن أبي

---

(١) التأليف : الجمع ، ومنه قوله تعالى : ﴿ . . . تألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً﴾ .

(٢) الزنجاني : تاريخ القرآن ، ص ٤٤ .

(٣) أصول الكافي ، ص ٤٥٣ .

طالب ﷺ في بيته ، فقيل لأبي بكر قد كره بيعتك ، فأرسل إليه فقال : أكرهت بيعتي ؟ قال : لا . . . قال : ما أقعدك عني ؟ قال : رأيت كتاب الله يزاد فيه ، فحدثت نفسي أن لا ألبس ردائي إلاّ لصلاة حتى أجمعه ، قال أبو بكر : فإنك نعم ما رأيت[1] .

وعن محمد بن سيرين قال : (لما توفي النبي ﷺ أقسم علي أن لا يرتدي برداء إلاّ لجمعة حتى يجمع القرآن في مصحف)[2] .

وقد وردت روايات عديدة أخرى ، تنقل أن الخليفة أبا بكر (رض) مارس تأليف الرقاع التي كان القرآن مدوّناً عليها ، واستنسخ عنها مصحفاً كاملاً منسقاً ومرتباً .

فعندما استحرّ القتل بقرّاء القرآن (يوم اليمامة) ، عند قتال مسيلمة الكذاب قال عمر (رض) لأبي بكر (إن حملة القرّاء قد قتل أكثرهم يوم اليمامة ، فلو جمعت القرآن ؟ فإني أخاف عليه أن يذهب حملته ، فقال أبو بكر أفعل ما لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ ! فلم يزل به عمر ، حتى جمعه وكتبه في صحف ، وكان مفترقاً في الجريد وغيره)[3] .

ومنه يظهر أن أبا بكر أشكل على عمر توحيد الرقاع حيث لم يتم في عهد رسول الله ﷺ بل خلّف رسول الله ﷺ القرآن مدوّناً ولكن مفرّقاً بين تلك الرقاع ونحوها .

على أن هذه الروايات لا تعارض ولا تزاحم ما ذهبنا إلى ترجيحه من الروايات الأخرى ، من أن أول المبادرين إلى جمع القرآن في مصحف واحد هو الإمام علي ﷺ وإنما قام بذلك دون تردد ـ كما وقع لأبي بكر ـ لأنه موصى به من قبل رسول الله ﷺ ، كما ذكرنا في

(١) السيوطي : الإتقان ، ج ١/ ٥٨ .
(٢) ابن كثير : فضائل القرآن ، ص ١٤ .
(٣) اليعقوبي : تاريخه ، ج ١/ ١٢٥ ، الزركشي : البرهان : ج١/ ٢٣٣ ، القيسي : الإبانة ص ٢٤ .

السابق . ولا يبعد أن يكون علي بن أبي طالب عليه السلام جمع القرآن باعتباره وصي رسول الله ﷺ ، وأبو بكر (رض) جمع القرآن باعتباره خليفة المسلمين ، في آن واحد .

المطلب الثاني
توحيد المصاحف

ظل المسلمون بالرغم من جمع القرآن وتنسيقه في مصحف واحد ، يقرأونه بقراءات شتى لاختلاف ألسنتهم ، فكان الاختلاف في الحركة الإعرابية مثلاً مثاراً للخلاف بينهم ، وتشتيت كلمتهم ، الأمر الذي دعا حذيفة بن اليمان (ت ٣٦ هـ) بعد عودته من فتح بلاد أرمينية وآذربايجان ، مع أهل العراق ، أن يسرع إلى الخليفة عثمان بن عفان (رض) ، ويذكره بمنع النبي ﷺ من الاختلاف في القرآن ، قائلاً له : (أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى)(١) . وهناك روايات تذكر أسباباً عديدة لتوحيد المصحف .

فقام عثمان (رض) بجمع المسلمين على قراءة واحدة ، (وهي القراءة التي كانت متعارفة بين المسلمين ، والتي تلقوها بالتواتر عن النبي ﷺ)(٢) ، ومنع سائر القراءات . وأحرق المصاحف أو أتلفها(٣) ، عدا المصحف الذي اختاره واستنسخته لجنة من زيد بن ثابت وجماعة آخرين .

(وفي كلام ابن طاووس رحمه الله في كتاب (سعد السعود) أن عثمان (رض) عاد وجمع المصحف برأي علي عليه السلام تأييد لما ذكره

---

(١) ابن كثير : فضائل القرآن : ص ١٠ ، الزركشي : البرهان ج ١ / ٢٣٦ ، القيسي : الإبانة ص ٢٧ .

(٢) الخوئي : البيان ، ص ٢٧٧ .

(٣) قال اليعقوبي : (وكتب في جمع المصاحف من الآفاق حتى جمعت ثم سلقها بالماء الحار والخل ، وقيل أحرقها) تاريخ اليعقوبي ج ٢ / ١٥٩ .

الشهرستاني في مقدمة تفسيره برواية سويد بن علقمة قال : سمعت علي بن أبي طالب عليه السلام يقول : أيها الناس إياكم والغلو في أمر عثمان ، وقولكم حرّاق القرآن ، فوالله ما حرّقها إلّا من ملأ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله ، جمعنا وقال : ما تقولون في هذه القراءة التي اختلف الناس فيها : يلقى الرجلُ الرجلَ فيقول قراءتي خير من قراءتك ، وهذا يجر إلى الكفر ، فقلنا بالرأي ، قال أريد أن أجمع الناس على مصحف واحد فإنكم إن اختلفتم اليوم كان من بعدكم أشدّ اختلافاً ، فقلنا نعم ما رأيت : فأرسل إلى زيد بن ثابت ، وسعيد بن العاص قال : يكتب أحدكم ويملي الآخر ، فلم يختلفا في شيء إلّا في حرف واحد في سورة البقرة ، فقال أحدهما : (التابوت) وقال الآخر : (التابوه) واختار قراءة زيد بن ثابت لأنه كتب الوحي)[1] .

وبهذا يكون عثمان بن عفان (رض) قد وحّد المصاحف وذلك باختيار ما تواتر عن رسول الله صلى الله عليه وآله ، وإلغاء سائر القراءات ، لا بمعنى تنسيق سوره وآياته بين لوحين كما فعل الإمام علي ومن بعده من الخلفاء . (فلم يقصد عثمان قصد أبي بكر في جمع نفس القرآن بين اللوحين ، وإنما قصد جمعه على القراءة الثابتة المعروفة عن النبي صلى الله عليه وآله ، وإلغاء ما ليس كذلك)[2] .

وقال أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي : المشهور عند الناس أن جامع القرآن هو عثمان ، إنما حمل عثمان الناس على قراءته بوجه واحد ، على اختيار وقع بينه وبين من شهده من المهاجرين والأنصار[3] فتم توحيد الناس على مصحف موحّد ، على العرضة الأخيرة التي عارض بها جبرائيل رسول الله صلى الله عليه وآله ، في آخر رمضان من

---

(١) الزنجاني : تاريخ القرآن ، ص ٦٨ .
(٢) الزركشي : البرهان ج ١/ ٢٣٥ ، السيوطي : الإتقان ، ج ١/ ٦٠ .
(٣) السيوطي : المصدر نفسه .

عمره سنتين ، فإنه عارضه به يومئذ مرتين[1] .

المطلب الثالث
المصاحف العثمانية ومصيرها

١ ـ عدد المصاحف العثمانية :

بعد قيام عثمان (رض) بحمل الناس وتوحيدهم على قراءة واحدة للقرآن الكريم ، استنسخ عدة نسخ منه ، فرّقها على الأمصار ليتم التعويل عليها دون غيرها .

وقد اختُلف في عدد المصاحف التي عمّمها عثمان (رض) ، والمشهور أنها خمسة كما ذكر ذلك السيوطي في الإتقان . غير أن أبا عمرو الداني ذكر في (المقنع في رسم القرآن) : أكثر العلماء على أن عثمان كتب المصاحف وجعلها على أربع نسخ ، وبعث إلى كل ناحية واحدة : الكوفة ، والبصرة ، والشام ، وترك واحدة عنده)[2] .

وقال اليعقوبي : إن عدد المصاحف المستنسخة تسعة ، قال وبعث بها إلى الأمصار ، وعدَّد الكوفة ، والبصرة ، والمدينة ، ومكة ، ومصر ، والشام ، والبحرين ، واليمن ، والجزيرة[3] .

وذكر ابن الجزري أنها ثمانية قال : (فكتب منها عدة مصاحف : فوجه بمصحف إلى البصرة ، ومصحف إلى الكوفة ، ومصحف إلى الشام ، وترك مصحفاً بالمدينة وأمسك لنفسه مصحفاً ، الذي يُقال له الإمام ، ووجه بمصحف إلى مكة ، وبمصحف إلى اليمن ، وبمصحف إلى البحرين)[4] .

---

(١) ابن كثير : فضائل القرآن ، ص ١٠ ـ ١٤ .
(٢) الزركشي : البرهان ج ١/٢٤٠ .
(٣) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، ج ٢/١٦٠ .
(٤) ابن الجزري : النشر في القراءات العشر ، ج ١/٧ .

وعن ابن أبي داود قال : (سمعت أباحاتم السجستاني يقول كتب سبعة مصاحف فأرسل إلى مكة ، وإلى الشام ، وإلى اليمن ، وإلى البحرين ، وإلى البصرة ، وإلى الكوفة ، وحبس بالمدينة واحداً)[1] .

ولعل السبب في الاختلاف في عدد المصاحف يرجع إلى الرواة ، حيث اعتمدوا في تعداد المصاحف على الأمصار المذكورة التي وجهت إليها المصاحف ، في الوقت الذي يمكن أن يكون وجه بمصحف واحد إلى مصر والشام مثلاً ، فيكون الراجح خمسة مصاحف بعدد الحفّاظ الذين أرسلوا معها .

ومن أجل ضمان توحيد القراءات بين المسلمين على الوجه المختار المتواتر ، أرسل عثمان (رض) مع كل نسخة إقليم حافظاً ، يوافق قراءته ، فكان زيد بن ثابت مقرىء المصحف المدني ، وعبد الله بن السائب مقرىء المصحف المكي ، والمغيرة بن شهاب مقرىء المصحف الشامي ، وأبو عبد الرحمن السلمي مقرىء المصحف الكوفي ، وعامر بن عبد الرحمن مقرىء المصحف البصري .

٢ ـ مصير المصاحف العثمانية ووصفها :

الإجماع بين المسلمين على أن المصاحف التي عمّمها عثمان بن عفان (رض) على الأمصار ـ أياً كان عددها ـ كانت متطابقة فيما بينها ، متماثلة مشتملة على القرآن كله ، المنقول عن النبي ﷺ نقلاً متواتراً ، يضم مائة وأربع عشرة سورة . وهذه النسخ خالية من النقط والشكل والنقوش التي نجدها اليوم في المصاحف التي بأيدينا ، كما أنها كانت خالية من أسماء السور والفواصل على المشهور .

على أن مصير هذه المصاحف غير معروف بصورة جلية متقنة ، غير أن ابن كثير (ت ٧٧٤ هـ) قد رأى مصحف الشام ، وقد جاء في

---

(١) ابن أبي داود : كتاب المصاحف ، ص ٣٤ .

كتابه فضائل القرآن قوله :

(أما المصاحف العثمانية الأئمة ، فأشهرها اليوم في الشام بجامع مشق عند الركن ، شرقي المقصورة المعمورة بذكر الله ، وقد كان قديماً بمدينة (طبرية) ، ثم نقل منها إلى دمشق في حدود سنة (٥١٨ هـ) ، وقد رأيته كتاباً عزيزاً جليلاً عظيماً بخط حسن مبين ، قوي ، بحبر محكم ، في رق أظنه من جلود الإبل)[١] .

وفي مكتبة الإمام الرضا علي بن موسى عليه السلام في خراسان نسخ من القرآن الكريم يعتقد أنهما بخط الإمام علي عليه السلام وسائر أولاده المعصومين عليهم السلام .

وقال الزنجاني : ورأيت (خمسة شهر ذي الحجة سنة ١٣٥٣ هـ) في دار الكتب العلوية في النجف ، مصحفاً بالخط الكوفي كتب على آخره : كتبه علي بن أبي طالب في سنة أربعين من الهجرة)[٢] .

ولقد استمر المسلمون منذ أن اختار الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وآله دار الكرامة على استظهار القرآن الكريم واستنساخه ،فأنت تجد في كل جيل من الأجيال ألوفاً من المصاحف ، وألوفاً من الحفاظ ، فتكون ألوف المصاحف رقيبة على استظهار الحفاظ ، وألوف الحفاظ رقباء على نسخ المصاحف .

(وليست كهذه ، حال العهد القديم ـ التوراة ـ الذي لم تعترف له بالصحة الدراسة النقدية للشراح المحدثين ، فيما عدا واحداً من كتبه هو كتاب «أرمياء» .

وليس العهد الجديد ـ الإنجيل ـ بأسعد حالاً ، فقد ألغى مجمع أساقفة (نيقية) كثيراً من أخباره ، مما زرع الشك حول ما تبقى منه وهو (الأناجيل) .

---

(١) ابن كثير : فضائل القرآن ، ص ١٥ .
(٢) تاريخ القرآن : ص ٦٨ .

وهذه الأخيرة بدورها لا تعتبر الآن من الصحاح ، لأن النقد أثبت أنها قد «وضعت» بعد المسيح بأكثر من قرن ، أي بعد عصر الحواريين الذين تنسب إليهم التعاليم المسيحية .

وعلى هذا فإن شكوكاً كثيرة تحوم الآن حول القيمة التاريخية للوثائق اليهودية)[1] .

أما القرآن الكريم فقد ظل ينتقل من جيل إلى جيل بطريقة متقنة فذة فريدة ، تعارف الناس عليها ، حتى انتشر من أقصى بلاد المسلمين في شمال غربي أفريقيا ، إلى أقصى البلاد الإسلامية في جنوب شرقي آسيا .

ولم يتفق لكتاب من التواتر ودقة النقل ، ما اتفق للقرآن الكريم ، وإنما كان ذلك لأنه لا نبيّ بعد محمد ﷺ ، ولا شريعة بعد الإسلام ، ولوعد الله تعالى الذي صدق وعده : **﴿إنا نحن نزّلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾** [سورة الحجر ، الآية : ٩] .

---

(١) مالك بن نبي : الظاهرة القرآنية ، ص ١٠٨ ـ ١٠٩ .

الفصل السادس

سور القرآن الكريم وآياته

- السورة والآية : تعريفهما ، معرفتهما ، ترتيبهما .
- حكمة جعل القرآن سوراً .
- أسماء السور وتقسيمها .

المبحث الأوّل
السورة والآية
تعريفهما . معرفتهما . ترتيبهما

المطلب الأوّل
تعريف السورة والآية

تعريف السورة :

قال أبو عبيد وغيره : إنها غير مهموزة ، مأخوذة من سور البناء ، وكل منزلة رفيعة فهي سورة . ومنها قول النابغة :

ألم تر أنّ اللّه أعطاك سورةً ترى كلَّ ملك دونها يتذبذب

وقيل إنها مهموزة ، فيكون معناها القطعة من القرآن انفصلت عما سواها وأبقيت(١) ، فصارت وحدة مستقلة تشتمل على مقدار من الآيات وتحمل اسماً خاصاً بها .

قال القتيبي : السورة تهمز ولا تهمز ، فمن همزها جعلها من أسارت : أي أفضلت ، من السؤر : وهو ما بقي من الشراب في الإناء ، كأنها قطعة من القرآن(٢) .

---

(١) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ج ٧/١ ، السيوطي : الإتقان ج ٥٢/١ .
(٢) الزركشي : البرهان ، ج ٢٦٣/١ .

وقيل إن السورة : طائفة من القرآن والتي أقلُّها ثلاث آيات[1] .

تعريف الآيـة :

الآية لغة : العلامة أو الدلالة ، قال تعالى : ﴿سنُريهم آياتنا في الآفاق ، وفي أنفسهم حتى يتبيَّن لهم أنه الحق ، أو لم يكفِ بربِّك أنه على كل شيء شهيد﴾ [سورة فُصِّلت ، الآية : ٥٣] .

والآية اصطلاحاً : هي الواحدة من المعدودات في سور القرآن ، وهي علامة أو دلالة على صدق رسالة النبي ﷺ وعلى عجز من تحداهم لذلك فهي دليل معجز . فالآية هي : أصغر الوحدات التي يتألف منها النص القرآني .

المطلب الثاني
معرفة السورة والآية

معرفة السورة :

تتم معرفة السورة بتوقيف من الشارع المقدس دون قياس أو اجتهاد فهي تستمد شكلها واستقلالها من النص الشرعي .

وتبتدىء السورة بالبسملة عادة غير أن سورة (براءة) لم تبتدىء بها ، وقد جاء تعليلها عن علي ﵁ : بأن البسملة أمان . وهذه السورة نزلت لرفع الأمان بالسيف ، بعد أن نقض المشركون العهد ، أو هموا بنقضه ، فأمر الله تعالىٰ أن تنقض عهودهم ويرفع الأمان ويجرّد السيف . والبسملة جزء من آية : ٣٠ من سورة النمل[2]

---

(١) صاحب الجواهر : الشيخ محسن ، الفرائد الغوالي على شواهد الأمالي للسيد المرتضى ص ١٨٥ .

(٢) انظر للمؤلف : التجويد وآداب التلاوة : بحث البسملة ، وراجع مسائل فقهية للسيد عبد الحسين شرف الدين ، الدكتور إبراهيم بسيوني : البسملة ص ١٣ .

وتتألف كل سورة من مقدار من الآيات يتراوح بين ثلاث ـ كسورة العصر ـ وبين ست وثمانين ومائتين آية ـ كسورة البقرة ـ .

معرفة الآية :

بالرغم من معرفتنا أن الآية هي طائفة من حروف القرآن الكريم ، وأنها أصغر الوحدات التي يتألف منها النص القرآني ، ويفصل بين الواحدة منها والأخرى فاصل ، إلا أن ترتيب الآيات وموقع الآية من السورة ، ومعرفة كونها آية أم لا كل ذلك يتوقف على الشارع . فمعرفتنا الآية تتم من صاحب الرسالة الغرّاء الرسول ﷺ فلا مجال للمعرفة غير هذا المجال ، فالتوقيف الشرعي هو وحده مصدر معرفتنا بذلك .

ولهذا فإن (الم) تعدّ آية حيث وقعت من السور المفتتح بها[1] ، و (حم) و (المص) كذلك . وليست (طس) و (الر) آية لعدم ورود النص بها ، وهذا مذهب الكوفيين ، وما سواهم لم يعدوا شيئاً منها آية .

المطلب الثالث

ترتيب الآيات والسور

نبحث فيما يلي ترتيب كل من الآيات والسور من حيث النزول والتدوين والتلاوة لما بين هذه الأمور الثلاثة من فوارق .

١ ـ ترتيب الآيات :

أ ـ ترتيب النزول :

سبق أن ذكرنا أن نزول الآيات تمّ تنجيماً ، ومع ذلك لم يكن على نحو تتابعها الخاص المدون في سور المصحف . فقد يفصل بين الآية وما بعدها من آيات السورة نفسها فاصل زمني يطول أو يقصر حسب الحكمة التشريعية الإلهية فتظل السورة طيلة هذه المدة مفتوحة

---

(١) كما في سورة البقرة ، وآل عمران ، العنكبوت ، الروم ، لقمان ، السجدة .

ظار بقية آياتها ، وخلال ذلك الفاصل الزمني قد تنزل آيات سورة أخرى ، حتى إذا اقتضت حكمة الله ، وحاجة الناس إلى تكملة السورة الأولى نزلت بقية أو بعض آياتها .

ويعرف ترتيب نزول الآيات من الروايات المنقولة والنصوص التاريخية والشواهد التي قارنت النزول .

ب ـ ترتيب التدوين :

من الواضح أن لكل آية موضعها الخاص بين آيات سورتها ، وهذا الموضع يعرف عن رسول الله ﷺ عن جبرائيل عن الله تعالىٰ . وهو ثابت قطعي لا خلاف فيه بين المسلمين ، وهو كما مدون في المصاحف الشريفة التي بأيدينا ، والمنقولة نقلاً متواتراً عن الرسول الأمين ﷺ .

فلقد كان رسول الله ﷺ يلقن أصحابه وكتبة وحيه ما يتنزل من القرآن على الترتيب الذي هو عليه الآن في المصاحف ، بتعليم من جبرائيل عند نزول كل مقدار من الآيات أنها تكتب بعد آية كذا في سورة كذا .

ولهذا فإن ترتيب الآيات في السور ترتيب إلٰهي ، تولاه النبي ﷺ كما أخبره به جبرائيل عن أمر ربه ، لأن القرآن محفوظ في اللوح الثابت ، على هذا الترتيب ، وليس في ترتيب الآيات أية رخصة .

جـ ـ ترتيب التلاوة :

كان رسول الله ﷺ يقرأ سوراً عديدة بترتيب آياتها ـ الترتيب الموضعي ـ والذي دونت بموجبه على التواتر ، لا حسب ترتيب نزولها فكان ذلك دليلاً صريحاً أن ترتيب الآيات توقيفي في تدوينها وفي تلاوتها ، فلا تجوز ولا تصح تلاوة الآيات على غير ترتيبها الذي تمّ تدوينها بموجبه في المصاحف .

٢ ـ ترتيب السور :

أ ـ ترتيب نزول السور :

لا شك أن ترتيب نزول السور ليس على نسق ما هي عليه في المصاحف . فنحن نجد أن ترتيب نزول القرآن يبدأ بسورة (العلق) في مكة ثم (ن والقلم) ويستمر النزول ما يقرب من ثلاث عشرة سنة تعقبها الهجرة المباركة حيث يبدأ النزول في المدينة المنورة بسورة (البقرة) ثم (الأنفال) ، وكانت آخر سورة نزلت من القرآن الكريم هي سورة (النصر) نزلت في (منى) في حجة الوداع . وقيل إن آخر ما نزل من الآيات ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيتُ لكم الإسلام دينًا**﴾ [سورة المائدة : الآية : ٣] نزلت بعرفات في حجة الوداع أيضاً . وبعدها بقرابة شهرين دعا الله تعالى رسوله وحبيبه إلى دار الكرامة والبقاء .

ب ـ ترتيب التدوين :

ذكرنا قبل قليل ترتيب نزول السور وهو يختلف تماماً عن ترتيب تدوينها في المصاحف حيث يبتدىء بسورة (الفاتحة) وهي مكية مدنية ، ثم سورة (البقرة) وهي مدنية نزلت بعد الهجرة ، ثم سورة (آل عمران) وينتهي المصحف بسورة (الناس) وهي مكية وآخر سورة في جميع المصاحف .

وقد اختلف الناس في ترتيب تدوين السور في المصاحف إلى ثلاثة اتجاهات : فمنهم من قال إنه اجتهادي ، قال ابن كثير (فأما ترتيب السور فمن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه)[١] (وهذا مذهب مالك والقاضي الباقلاني)[٢] .

---

(١) فضائل القرآن ، ص ١٣ .

(٢) الزركشي : البرهان ، ج ٢٥٧/١ .

ومنهم من قال إنه توقيفي كله لا يدخله الرأي والاجتهاد كترتيب الآيات ضمن كل سورة . ومنهم من فصَّل ، فقال : منه ما هو توقيفي ومنه ما هو اجتهادي . وقد اجتهد كل فريق بحشد أدلة من الروايات والسيرة لتأييد وإسناد ما ذهب إليه[1] .

غير أن اختلاف مصاحف الإمام علي ﷺ وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس والإمام أبي عبد الله جعفر بن محمد في ترتيب سورها يشير إلى أن ترتيب السور كان باجتهاد الصحابة الجامعين ، بخلاف وضع الآيات في محالها فإنه كان بنص النبي ﷺ ، وتواتر عنه ذلك .

جـ ـ ترتيب تلاوة السور :

إن تلاوة السور ليست توقيفية كتلاوة الآيات ، بل للقارىء أن يقرأ من السور ما يتيسر له دون التزام بترتيب معين ، دلّ عليه حديث حذيفة وهو في الصحيح أنه ﷺ قرأ في قيام الليل (البقرة) ثم (النساء) ثم (آل عمران)[2] .

كما أن للقارىء أن يرتل ما يتيسر له من آيات سورة من السور دون التزام بتكملة تلك السورة ، ولكن على حسب ترتيب آياتها المدونة في المصحف كما ذكرنا .

المبحث الثاني
حكمة جعل القرآن سوراً

نحن نعتقد أن الله تعالى حكيم في كل ما يصدر عنه ، منزَّه عن العبث ، وقد شاءت إرادته أن يجعل القرآن سوراً ، ولم يجعله باباً

---

(١) أنظر الزنجاني : تاريخ القرآن ، ابن أبي داود : كتاب المصاحف ، ابن كثير : فضائل القرآن ص ٢٦ ، وما بعدها .
(٢) ابن كثير : فضائل القرآن ص ٢٤ .

واحداً ، ولا بدّ أن يكون ذلك منه عن قصد وتدبير ، وحكمة وتقدير ، وأسرار هو أعلم بها .

غير أن هذا الإعتقاد لا ينافيه أن نقول بوجود حكم وفوائد يمكن للعقل أن يستشفها ويدركها . قد تكون هي الأسباب التي جاء القرآن من أجلها سوراً ، وقد لا تكون ، باعتبارها ليست أموراً شرعية منصوصة بل هي قضايا تتوقف على فهم روح الرسالة ومنهج القرآن وطبيعة المجتمعات .

وإذا لم يكن ما سنذكره أسباب جعل القرآن سوراً ، فلعلها من جملة تلك الأسباب :

١ ـ التعجيز :

فقد تحدى القرآن الكريم أن يؤتى بسورة من مثله دونما تعيين ، ولما كانت سوره الشريفة مختلفة في عدد آياتها ، ومتباينة في موضوعاتها التي عالجتها ، وضروب وأساليب البلاغة وصور الفصاحة التي تضمنتها ، فصارت سورة (الكوثر) بآياتها الثلاث ، معجزة كإعجاز سورة البقرة ، مما يدل على أن الإعجاز في القرآن غير متوقف على طول أو قصر السورة ، ولا على موضوع التشريع ، أو أسلوب القصة أو أخبار الحشر والنشر والأمم الغابرة ، ولا على براهين العقيدة العقلية وما إلى ذلك . بل كل سورة في القرآن موضع تحدٍ ومعجزة ، وكل سور القرآن معجزات رغم التباين فيما بينها .

فهذه السور أظهرت إعجاز القرآن بصورة أشد وأقوى ، بخلاف ما لو لم يكن القرآن سوراً ، فقد يكون من الممكن أن يلتمس بعضهم المعاذير ، لضخامة محل التحدي ، ولوسعه وتعدد مواضيعه ، فيضعف وجه الإعجاز ، إذ إن تحدي الناس أو الإنس والجن بأية سورة من السور أظهر للإعجاز وأنكل في التعجيز من تحديهم بمجموع السور مجتمعة .

٢ ـ التيسير :

إن من يستظهر سورة كاملة من القرآن يكون ـ عادة ـ أنشط في استظهار سورة أخرى ، وأبعث على أدامة واستمرار الإستظهار من أن يستظهر القرآن كله ، باباً واحداً ، أو متصلاً دون تفصيل . إذ السور تبعث التدرج في الاستظهار وتيسره على الحفّاظ .

٣ ـ التشويق :

إن من يقرأ أو يحفظ سورة مستقلة يعتز بها ويعظم شأنه ، إذ يكون قد أحرز قطعة كاملة من القرآن الكريم ، فيجدّ إلى تلاوة أو استظهار غيرها بشوق ورغبة . فعن أنس قال : كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جلّ فينا .

٤ ـ التبويب :

إن اختلاف مواضيع وأهداف السور الكريمة ، وتباين النواحي البلاغية والبيانية التي تعرضت إليها ، وتفاوت الأساليب النظمية ، والتصويرات الحسية التي شاعت بين آياتها ، لزم أن تحتفظ كل سورة من سور القرآن الكريم بمضامينها ومعالمها الخاصّة ، واستقلالها عن سائر السور .

فالقارىء للقرآن الكريم يجد في كل سورة عبيراً ، وفي كل آية نفحة تشيع فيه إحساساً خاصاً ، فسورة (يوسف) تترجم عن قصته ، وهي وإن زادت على مائة آية إلاّ أنها لم تذكر جنة ولا ناراً . وسورة (المجادلة) ضمّت كل آية فيها اسمه تعالىٰ ، وسورة المنافقين تترجم عن سيكولوجية النفاق ، وتفضح مكائد المنافقين وتكشف أساليب خداعهم ومكرهم وهكذا .

المبحث الثالث
أسماء السور وتقسيمها

١ ـ أسماء السور :

ذكرنا أن السورة وحدة قرآنية تضم ثلاثة آيات فأكثر . والغالب أن لكل سورة إسماً ، وللبعض منها اسمان أو أكثر . فسورة الفاتحة تسمى (فاتحة الكتاب) و (أم الكتاب) و (السبع المثاني) وقيل إن لها نيفاً وعشرين اسماً لشرفها . وسورة (محمد) قد سمي سورة (القتال) ، وسورة (غافر) قد تسمى سورة (المؤمن) ، وسورة (براءة) قد تسمى سورة (التوبة) و (الفاضحة) و (الحافرة) و (العذاب) .

وتسمية السور قد يكون باعتبار أولها فسورة التوبة تسمى (براءة) لافتتاحها بهذه الكلمة . وقد تسمى بما اختصت به السورة كسورة (النساء) لما تردد فيها من ذكر للنساء وأحكامهن ، في حين يسمى البعض الآخر بما تحكيه من قصص أو تفصل من أحكام وهكذا . وكما تسمى سورة واحدة بأسماء عديدة ، تسمى سور باسم واحد ، كالمسماة بسور (الر) و (الم) على القول بأن فواتح السور أسماء لها .

ونحن لا نملك ما نستطيع معه الجزم على أن أسماء السور توقيفية ، مع ما لدينا من كثرة أسماء للسورة الواحدة ، ومن تعاليل لهذه التسميات فسورة تسمى سورة (غافر) لأن فيها ﴿غافر الذنب . . .﴾ وهي تسمى مؤمن لأن فيها ﴿وقال رجل مؤمن . . .﴾ [الآية : ٣ ، ٢٨] . يُضاف إلى ما ذكرنا أن في المسلمين من عارض وضع الأسماء على سور المصحف العثماني ، وإن لدينا بعض المصاحف خالية من هذه الأسماء مما يرجح القول إنها أسماء اجتهادية وليست توقيفية .

٢ ـ تقسيم السور :

تقسم السور الكريمة بحسب عدد آياتها الكريمة إلى :

أ ـ السبع الطُّوَل :

جمع طولى ، تأنيث الأطول ، كالكُبَر جمع كُبرى مؤنث أكبر وسميت طُوَلاً لأنها أطول سور القرآن ، وهي (البقرة) و (آل عمران) و (النساء) و (المائدة) و (الأنعام) و (الأعراف) ، أما السابعة فقيل إنها سورة يونس[١] ، وفي رواية أخرى أنها سورة الكهف[٢] .

ب ـ المئون :

سميت بذلك لأن كل سورة منها أقصر من الطُّوَل وتزيد آياتها على مائة آية وهي : (التوبة) و (النحل) و (هود) و (يوسف) و (الكهف) و (الإسراء) و (الأنبياء) و (طه) و (المؤمنون) و (الشعراء) و (الصافات) .

جـ ـ المثاني :

وهي السور ما بعد المئين ، قيل في سبب هذه التسمية إنها ثنت المئين بعد السبع الطول ، وقيل لتثنيتها الأمثال التي ذكرتها ، وهي السور التي آياتها أقل من مائة .

د ـ المفصَّل :

وهي قصار السور من سورة الحجرات حتى سورة الناس سميت بذلك لكثرة الفصول بين سورها بالبسملة .

---

(١) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ج ١/٣٥ ، السيوطي : الإتقان ، ج ١/٦٤ .

(٢) آيات سورة يونس (١٠٩) وسورة الكهف (١١٠) ولعل التردد في أي منهما السابعة مبعثه طول السورة اعتماداً على عدد حروفها لا على عدد آياتها . ولذلك صارت سورة (الكوثر) أقصر السور مع أنها ثلاث آيات وسورة (النصر) ثلاث آيات ولكن الأولى أقل حروفاً .

٣ ـ عـدد سور القرآن وآياته وحروفه :

يحسن أن نـذكر أن عـدد سور القـرآن (١١٤) سورة وعـدد آياتهـا على طريقة الكوفيين عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن حبيب السلمي عن علي بن أبي طـالب ﷺ آي القرآن على طـريقتهم (٦٢٣٦) آيـة[١] وأن حروفه بلغت (٣٢١٢٥٠) حرفاً .

واتفـاق المسلمين على أن عدد سـور القرآن مـائـة وأربـع عشـرة سورة كما ذكرنا أولها الفاتحـة وآخرهـا الناس ، كمـا هي في المصحف العثماني ، ومن جعل سورتي الأنفال والتوبة سـورة واحدة[٢] عـدّها مـائة وثلاث عشرة .

وأما ما يُقـال إن مصحف عبد الله بن مسعـود فيه مـائة واثنتـا عشرة سورة فسبب ذلك أنه لم يدون المعوذتين لشبهة (الرقية)[٣] ثم رجـع عن ذلك .

وأمـا اختلاف العلمـاء في عـدّ الآي والكلم والحـروف فمـردّه أن النبي ﷺ كان يقف على رؤوس الآي ، وقد لا يقف فيتـوهم السـامـع بفـواصل الآي . وأمـا من حيث الاختلاف في الكلم ، فـإن الكلمة لهـا حقيقة ومجاز ورسم ، واعتبـار كل منهـا جائـز فكل من العلمـاء عند عـدّ الكلم اعتبـر أحـد الـوجـوه الجـائـزة ، كمـا في (عمّ) و (ممّ) و (فيم) ونحوها .

---

(١) وحكى ذلك أبو عمرو الداني في كتابه البيان ، أنظر ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ج ١/٧ ، الزركشي : البرهـان ، ج ١/٢٤٩ ، السيوطي : الإتقـان ، ج ١/٦٤ ـ ٧٠ .

(٢) تـدعى سورتـا الأنفال والتـوبة القـرينتين لأنهمـا لم يفصـل بينهمـا (بسم الله الرّحمن الرّحيم) فلربما عدها العادون سورة واحدة .

(٣) الرقية : أن يستعان بقوى تفوق القوى الطبيعية لأمر من الأمور . وإنما اعتبر ابن مسعود المعوذتين رقيـة حيث قيـل إن رسـول الله ﷺ كـان يقـرأهمـا ، وكـذا الـزهـراء فاطمة ﷺ على الحسن والحسين ﷺ حفظاً لهما من الشرور .

الفصل السابع

شكل المصحف وإعجامه

- معنى الشكل والإعجام .
- تاريخ شكل المصحف وإعجامه .
- الآراء في شكل المصحف وإعجامه .

المبحث الأوّل
معنى الشكل والإعجام

الشكــل :

يصطلح على الرموز الكتابية التي تضبط حركات الأحرف أو تدل على إعراب الكلمة بـ (الشكل) ، وهي العلامات التي تدل على الفتح والكسر والضم والسكون والتنوين .

وقد بدأ الشكل أول مرة بوضع (نقطة) مدورة فوق أول الحرف للدلالة على الفتح ، ونقطة تحت آخره للدلالة على الكسر . ونقطة على آخره للدلالة على الضم ، ونقطتين علامة السكون .

ثم تطورت هذه العلامات ، فصارت ـ كما هو معروف الآن ـ الفتحة خطاً مائلاً فوق الحرف ، والكسرة خطاً مائلاً تحته ، والضمة واواً صغيرة فوقه ، والسكون دائرة صغيرة فوقه ، والتنوين علامتين من هذه العلامات .

الإعجــام :

الإعجام لغة الاختبار والتميز ، يُقال عجمت العود فوجدته هشاً أي فحصت قوته واختبرتها .

والإعجام في الكتابة يعني تمييز الحروف المتشابهة في الرسم كالباء والتاء والثاء وكالحاء والخاء والجيم ، وكالسين والشين ونحوها . ويتم تمييز هذه الحروف بوضع نقطة أو أكثر فوق الحرف أو تحته للتفريق بينها ، فالباء المعجمة ما كان تحتها نقطة ، والثاء ما كانت فوقها ثلاث نقاط . والحاء المهملة هي الخالية من النقاط والجيم المعجمة ما تحتها نقطة واحدة وهكذا .

وعلى ضوء هذا البيان يتضح أن شكل المصحف يعني العلامات الكتابية التي عيّنت حركة حروف كلماته . وإن إعجام المصحف يعني تمييز حروفه المتشابهة في الرسم بعضها عن البعض الآخر بالنقط .

المبحث الثاني
تاريخ شكل المصحف وإعجامه

كان العرب حديثي العهد بالكتابة والخط ، وقد تلقوا معرفة الخط عن طريق الإتصال بين أفرادهم وأهل العراق أو الشام . الأمر الذي أدّى إلى تعلمه في الحجاز ، وكان الخط الشائع هو السرياني ، وهو خالٍ من النقط ثم تطور إلى الخط الكوفي المعروف .

وكان العرب بما لديهم من أصالة الفصاحة ، والمنعة الذاتية عن اللحن ، والذوق الأصيل في النطق الصحيح ، في غنى عن الشكل والإعجام فيما يقرأون أو يكتبون .

وتدوين القرآن في عهد الرسول ﷺ ونسخه في المصاحف في عهد الصحابة والخلفاء ، وكذلك النسخ العثمانية الأم كانت خالية من الشكل والإعجام .

ويقول أبو حيان التوحيدي : (إن علي بن أبي طالب ؓ سمع قارئاً يقرأ على غير وجه الصواب ، فساءه ذلك ، فتقدم إلى أبي الأسود الدؤلي حتى وضع للناس أصلاً ومثالاً وقياساً بعد أن فتق له حاشيته .

ومهّد له مهاده، وضرب له قواعده)[1].

وعن يحيى بن يعمر أن أبا الأسود الدؤلي دخل إلى ابنته بالبصرة فقالت له: يا أبتِ ما أشدُّ الحرّ (رفعت دال أشد) فظنها تسأله وتستفهم منه أي زمان الحر أشد؟ فقال لها: شهر ناجر (يريد شهر صفر. كانت الجاهلية تسمي شهور السنة بهذه الأسماء). فقالت يا أبتِ: إنما أخبرتك ولم أسألك. فأتى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ، فقال: يا أمير المؤمنين ذهبت لغة العرب، لما خالطت العجم، وأوشك إن تطاول عليها زمان أن تضمحلّ فقال له: وما ذلك؟ فأخبره خبر ابنته، فأمره فاشترى صحفاً بدرهم وأملى عليه: الكلام كله لا يخرج من اسم وفعل وحرف جاء لمعنى (وهذا القول أول كتاب سيبويه) ثم رسم أصول النحو كلها فنقلها النحويون وفرّعوها، (وقيل لأبي الأسود الدؤلي من أين لك هذا العلم - يعنون النحو - فقال: أخذت حدوده عن علي بن أبي طالب ﷺ)[2].

وقد اشتهر أيضاً أن أبا الأسود الدؤلي أفزعته حادثة فسبق إلى وضع علامات حتى يعرف الناس بها كلام الله تعالى. فقد سمع قارئاً يقرأ قول الله تعالى: ﴿إن الله بريءٌ من المشركين ورسوله...﴾ [سورة التوبة، الآية: ٣] فقرأ بكسر اللام (ورسولهِ) فقال أبو الأسود عزّ وجه الله أن يبرأ من رسوله، فاجتهد لمنع الجهال من هذا اللحن في كتاب الله. فوضع علامة الضم نقطة مدورة بين أجزاء الحرف، وعلامة الفتح نقطة فوقه، وعلامة الكسر نقطة تحته، وجعل علامة السكون نقطتين.

وجاء أيضاً: (إن أول من وضع نقط المصحف وحفظه من

---

(١) التوحيدي، البصائر والذخائر، ج ١ (بغداد ١٩٥٤) ص ١٧٥.

(٢) أبو الفرج الأصبهاني، الأغاني ج ١٢/٢٩٨، وما بعدها.

التحريف أبو الأسود الدؤلي صاحب أمير المؤمنين)[1] .

وقال القلقشندي : وقد روي أن أول من نقط القرآن ووضع العربية أبو الأسود الدؤلي من تلقين أمير المؤمنين علي كرّم الله وجهه[2] وهذه النقط المدورة هي بداية شكل القرآن .

وقيل إن تلميذ أبي الأسود الدؤلي وهو يحيى بن يعمر هو أول من نقط المصحف[3] ، وقيل إنه نصر بن عاصم .

وعلى أية حال فقد استمر الخط القرآني تشكله هذه الدوائر التي دوّنت بلون يغاير لون الخط خشية أن تختلط بالحروف القرآنية وتعجم بعضَ حروفه نقط ، حتى جاء الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥ هـ) حيث أكمل شكل الخط العربي واستبدل النقط المدورة بعلامات هي الفتحة والكسرة والضمة والسكون ثم أعقبه سهل بن محمد المعروف بأبي حاتم السجستاني (ت ٢٤٨ هـ) فألّف كتاباً في نقط القرآن وشكله .

وفي نهاية القرن الثالث الهجري بلغ رسم الخط ذروته في الإتقان والجودة والحسن ، واتسع على أثره نشاط استنساخ القرآن الكريم . وانتشر وشاع هذا الشكل الجديد من الخط والنقط والشكل ، حتى عمّ وألفناه في المصاحف التي بأيدينا .

المبحث الثالث
الآراء في شكل المصحف وإعجامه

نستطيع بما لدينا من روايات ونصوص ، أن نصنف المواقف التي

---

(١) الصدر ، تأسيس الشيعة ، ص ٣١٨ ، انظر كذلك : المحكم في نقط المصحف للداني ، والبرهان للزركشي ج ١/٢٥٠ ، وانظر الإتقان للسيوطي ج ٢/١٧١ .
(٢) صبح الأعشى ، ج ١٥١/٣ .
(٣) ابن أبي داود ، كتاب المصاحف ، ص ١٤١ .

اتخذت إزاء شكل المصحف بالنقط المدورة إلى ثلاثة اتجاهات[1] ، فمنها مانع ، ومنها مجيز ، ومنه مفصّل :

أ ـ فالصحابي عبد الله بن مسعود ـ كما جاء ذلك عن أبي عبيد وغيره ـ أنه قال : (جرّدوا القرآن ولا تخلطوه بشيء) .

ب ـ وقال النووي : نقط المصحف وشكله مستحب ، لأنه صيانة له من اللحن والتحريف . وأخرج ابن أبي داود : عن الحسن وابن سيرين عن المصحف ينقط بالنحو؟ فقالا : لا بأس به . وعن خالد الحذاء : قال رأيت ابن سيرين يقرأ في مصحف منقوط . وعن نافع بن أبي نعيم القارىء قال سألت ربيعة بن أبي عبد الرّحمن عن شكل القرآن في المصاحف ، فقال : لا بأس به .

جـ ـ وقال مالك : لا بأس بالنقط في المصاحف التي تتعلم فيها العلماء ، أما الأمهات فلا ، وقال مجاهد ينبغي الا يُشكَل إلاّ ما يُشكِلُ .

إن هذه المواقف المتفاوتة إزاء العلامات التي تضبط حركة الحروف في المصحف ، فيها قدر جامع متيقن ، هو الحرص على سلامة القرآن الكريم ، والحفاظ عليه من الزيادة والنقصان ، واللحن والتحريف . وقد اختلفت الوسائل واتفقت الأهداف واتحدت الغايات :

١ ـ فمن أجاز شكل المصحف أدرك أن هذا العمل من أسباب الحفاظ عليه من اللحن ، والتورط في تغيير الإعراب أو النطق بالكلمة ، الأمر الذي قد يفضي إلى تغيير مضاد في المعنى ، لأن التوسع الإسلامي لم يضف أمماً إلى العرب ليست لديها المنعة الذاتية والقدرة على تجنب الخطأ واللحن في القرآن فحسب ، بل إن اختلاط تلك

---

(١) ابن أبي داود : كتاب المصاحف ، ص ١٤٢ ـ ١٤٣ ، السيوطي : الإتقان ج ٢/١٧٣ .

الأمم بالعرب أنفسهم ، أفقدهم تلك الأصالة في النطق الصائب ، والقراءة القويمة ، والإعراب الصحيح ، مما دفع الغيورين على سلامة القرآن ، أن يجيزوا[1] شكل المصحف .

٢ ـ ومن توقف ، أو كره النقط ، أدرك أن تجويز النقط والشكل في المصاحف قد يؤدي إلى عدم التمييز بين الأحرف القرآنية وغير القرآنية ، مما قد يفضي إلى التحريف وعدم تمييز الناس بينها فطلبوا تجريد المصحف مما ليس بقرآن كالنقط والتعشير ونحوها .

٣ ـ ومن فصّل ، فقد أجاز النقط للتعليم ، حياطة للقرآن وحفظاً من اللحن ، ومنعها عن المصاحف الأم للاحتفاظ بالنسخ الأصلية .

كما أن من أجاز فقد طلب تحبير الشكل والإعجام بلون حبر يغاير لون حبر الخط القرآني في المصحف .

وهكذا يتجلى لنا حرص الاتجاهات كافة ، والغيرة على صيانة القرآن العزيز . وإنما كان الاختلاف : في السبل المؤدية إلى تحقيق هذا الهدف المشترك وفقاً لمقتضيات الظروف ، وزوايا النظر والتفكير .

وحين زالت المخاوف من اختلاط الشكل والإعجام بالحروف القرآنية ، بزوال مبرراتها ، لم يبق للمعارضة وجود يذكر ، قال أبو عمرو الداني : ثم أطبق المسلمون في ذلك في سائر الآفاق على جواز ذلك في الأمهات وغيرها . فلقد تنوّعت لهجات ولغات المسلمين ، فصار شكل القرآن وإعجامه من الأهمية بمكان لبيان هيأة المقروء .

فشاعت المصاحف الشريفة في ربوع العالم الإسلامي ، وهي مشكلة معجمة محفوظة من كل تحوير أو تزوير .

إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون والحمد لله رب العالمين

---

(١) ولعل مما يؤيدنا فيما ذهبنا إليه من تحليل أن ابن سيرين وغيره مانعوا من نقط المصحف وطلبوا تجريده منها ، ثم إنهم قالوا لا بأس بها وقرأوا في مصاحف منقطة . انظر الروايات : كتاب المصاحف ، ص ١٤١ وما بعدها .